الفصل الأول

مقالات في الإيمان والعقيدة

أولاً: حلاوة الإيمان

الحمد لله على نعمة الإيمان، وهي أولى النعم، وأجلها، وأعظمها، وأنفعها للإنسان في الدنيا والآخرة.

والصلاة والسلام على رسول الله، معلم الإيمان، والمرشد إليه، والمبين طريقه، والكاشف لفوائده ومنافعه، والمرغب فيه، والداعي إليه.

يقول رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبمحمد نبياً ورسولاً». رواه مسلم والترمذي والإمام أحمد.

يرشد رسول الله ﷺ، إلى منابع الإيمان، ليتذوق المؤمن ثمراته، ويصل إلى غايته، وينعم بظلاله، ويحيى برحيقه.

ويبدأ الإيمان بالاعتقاد بوحدانية الله تعالى، لا شريك له، ولا ند، ولا والد، ولا ولد، المتفرد بالألوهية، فلا إله بحق سواه، فهو الخالق البارئ، المصور، الرزاق، النافع الضار، الشافي، الرحمن الرحيم، ثم الإيمان بالله رباً، فلا رب سواه، وهو المتفرد بالربوبية، وهو رب العالمين، ورب الإنسان الذي يقف ذليلاً لربه، يتطلع إليه باللطف والرحمة، والرعاية والعناية، ويتجه إليه في كل أمره، يستغيثه، ويستنجد به، ويلجأ إليه، ويحتمي به، ويأنس بقربه في السراء والضراء فهو أقرب إليه من حبل الوريد.

والمؤمن هو الذي يرضى بالإسلام ديناً، ولا دين سواه، موقناً بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ومتمثلاً قوله تعالى مع أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ووقفاً عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥] ليكون الإسلام حديقة الجسم والروح، وبستان المعرفة والعلم، وحدود الالتزام والحركة والتصرف.

ويتمثل الإسلام بالقرآن إماماً للمؤمن، يقتدي به، ويلتزم بهداه، ويعمل بحلاله، ويجتنب محارمه، ويتلوه ليل نهار، ليتدبر معانيه، ويترجمها إلى الواقع والحياة في جميع مجالاتها.

ثم يكون من أتباع محمد النبي الأمي، ورسول الله إلى الناس أجمعين، فيكون محمد أحب للمؤمن من والده وولده ونفسه التي بين جنبيه، وهو نبراس الهدى، ومنار الضياء، ومهوى الأفئدة، والأسوة الحسنة في جميع الشؤون، والأمل المرتجى للشفاعة والأنس برفقته في جنات النعيم.

فإن تحققت هذه السبل، ورسخت في الذهن والفكر والعقل والقلب والجسد والروح، كان صاحبها مؤمناً حقاً، وجنى ثمرات الإيمان الحقيقي، وحقق السعادة في الدنيا، وكان واثقاً بوعد الله وفضله في الآخرة.

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا حلاوة الإيمان، ويهدينا سبل الإيمان، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: الرضا شعبة من الإيمان

الرضا بقضاء الله وقدره **منزلة رفيعة** من منازل الإيمان، فهو باب الله الأعظم، فمن تمتع بالرضا فقد أكرم بالتقرب الأعلى من ربه، وحظي بالترحاب الأوفى.

والرضا **أفضل من الزهد**، وأعلى مقاماً منه، فقد قيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: «إنَّ أبا ذرّ يقول: الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة»، فقال: «رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يُحبّ غير ما اختاره الله له»، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى لبشر الحافي: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته»[1].

والرضا نهاية التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل الصحيح على الله تعالى، واقترن بالتسليم له، ثم اتجه إليه بالتفويض، حصل له الرضا.

والرضا أعلى درجة من الصبر، لأن الصبر قد يقتصر على التسليم السلبي للإنسان عما أصابه من مكروه، وما نزل به من مصيبة، وما حلَّ به من جائحة، ويأتي الرضا بالدور الايجابي بقبول ذلك، وهذا ما أراده أحد العلماء عندما سئل عن قول النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء»[2]، قال: «لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا» وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: «أما بعد: فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر».

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٨٩، ٩٠.

(٢) هذا الحديث رواه النسائي، والإمام أحمد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه (مسند أحمد ١٩١/٥).

وقال ذو النون المصري: «ثلاثة من علامات الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء»[1].

ولخص أحد العلماء ذلك، فقال: «الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومحل راحة العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عين المشتاقين»[2].

◈ رضاء الله على العبد:

وكما يصدر الرضا من العبد في الدنيا، فإن الله تعالى يرضى على عباده في الحياة، ورضاء الله على العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره، ومنتهياً عن نهيه، وهذا الرضا جزاء من الله تعالى، وقد يكون رضا الله تعالى قبل ذلك بأن يلهم عباده للهداية، ويترل في قلوبهم الطمأنينة، ويفطرهم على الخير، ويهب نفوسهم الرضا، لأن الله تعالى هو الخالق أولاً، وهو المتصرف بشؤون خلقه ثانياً، ومن هنا ذهب بعض العلماء إلى أن الرضا موهبة من الله تعالى، وحالة تحل بالقلب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

وليس من شروط الرضا من الله لعبده أن يجنبه البلاء، ويحميه من كل مكروه، وأن يبعد عنه كل سوء، وألا تترل به المصائب والنوازل، كما يتوهم بعض الناس، فإن البلاء والابتلاء قرب من الله تعالى ومحبة، وإذا أحب الله عبداً ابتلاه، وهذا محل الاختبار لزيادة الأجر والثواب ورفع الدرجات، لذلك كان الأنبياء أشد الناس بلاءً، ثم الأولياء، ثم الأصلح فالأصلح، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٩٠، وانظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ١٧٧/٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، للفيروزابادي ٨٢/٣.

«أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة ابتلى على قدر ذلك، وإن كان فيه رقه هون عليه، فلا يزال البلاء بالرجل حتى يدعه يمشي على الأرض، وليس عليه خطيئة»[1].

وهنا تظهر العلاقة بين رضا الله تعالى على عبيده، ورضا العباد عن الله تعالى، فيبدأ الرضا الأصلي من الله تعالى لعبده بالفطرة والخلق والهداية والتوفيق، ثم يعقب ذلك رضا العبد عن ربّه بما قضاه وقدّره، والرضا عن أحكامه وشرعه، ورضاه بما نزل به وأصابه، ثم يأتي رضاء الله مرة ثانية على العبد بقبوله، والتفضل عليه بالجزاء والثواب.

قال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، واعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق سبحانه، إلا بعد أن يرضى عنه الحق سبحانه، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، [التوبة:١٠٠]، [المجادلة: ٢٢]، [البينة: ٨]، ومن هنا يعرف الإنسان رضاء الله عليه بأن يجد قلبه راضياً عن الله تعالى، فيعلم أن الله راض عنه، وقيل: إن موسى عليه السلام طلب من ربه أن يدله على عمل إذا عمله رضي عنه، فأوحى الله إليه: «يا ابن عمران، إن رضائي في رضائك بقضائي»[2].

◈ الرضا في الجنة:

الرضا من صفات المؤمنين بالجنة، بأن يرضوا بثواب الله تعالى، وجزاءه، وأن يقنعوا بعطاءه، ويطمئنوا لمكانهم، ويسعدوا بتحقيقه الوعد لهم، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فتطيب نفوسهم بما جازاهم

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٨٩.

الله تعالى به.

كما أن الرضا في الآخرة من المقامات العليا، بأن يحصل المؤمنون على رضاء الله تعالى، فيجزل لهم الثواب على أعمالهم، ويجزيهم على ما قدموا، ويغفر لهم ذنوبهم، وينعم عليهم برضوانه وجنته، وهذا هو المراد في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

لذلك ورد الثناء العظيم على المؤمنين بالرضا عن أعمالهم وسلوكهم، وأنهم رضوا بما أعطاهم الله تعالى في الدنيا، وما جزاهم في الآخرة، فقال تعالى في الآيات السابقة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٧-٨].

ووصف الله المؤمنين في الجنة يوم القيامة بأنهم يتمتعون برضاء الله الكامل، ورضوانه النهائي، فلا يطلبون غيره، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال الله عز وجل: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[المجادلة: ٢٢].

وأثنى الله تعالى على رسوله محمد ﷺ بأن أكرمه بالعطاء حتى يرضى، فقال تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥]، كما أثنى الله

تعالى على سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٥٥]، والمؤمن يدعو ربه بالولد الصالح الرضي بالدنيا والآخرة، اقتداء بدعاء زكريا عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى عنه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم: ٥-٦].

◈ حكم الرضا:

أجمع العلماء على أن الرضا بقضاء الله تعالى في الدنيا مستحب، وأنه مؤكد استحبابه، لما ورد فيه من ترغيب، وما نزل فيه من الثناء، وما مدح به أصحابه.

واختلفوا في وجوبه على قولين، فقال الأكثرون: إنه غير واجب، لأنه لم يرد به الأمر، كما ورد في الصبر والتوكل والزهد وغيره، وإنما جاء الثناء على أصحابه، فهو مستحب، كما أن الرضا غير واجب لما يعتبر في بعض حالاته وأهواله من كونه أمراً فطرياً، وموهبة إلهية، لا كسب للإنسان فيها، ولا اختيار له في وجودها.

وقال بعض العلماء: إن الرضا واجب، لأنه مطلوب من المكلف، ولأنه فرع عن الإيمان بالله تعالى، وهذا واجب، كما أنه فرع عن الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا واجب أيضاً، ولأنه يليق بجلال الله وكماله، ويرتبط بالعبودية الحقة من الإنسان[1].

(١) بصائر ذوي التمييز ٣/٨١، ٨٤، الإيمان، للدكتور محمد نعيم ياسين ص ١١٠.

◈ الرضوان في الآخرة:

إن رضوان الله تعالى في الآخرة من أجل النعم التي يتفضل الله بها على عباده المتقين، الفائزين في جنات النعيم، وهو ثابت قطعاً بنصوص القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢]، و قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ولذلك كان من دعاء المؤمن، و غايته، أن يحصل على رضوان الله تعالى، فقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ﴾ [المائدة: ٢]، ووصف الله تعالى حبيبه محمداً ﷺ وأصحابه الذين معهم بهذه الصفة، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

اللهم إنا نسألك رضاك، اللهم رضّنا وارض عنا، ووفقنا لما تحبه وترضى، وارزقنا الرضوان يوم القيامة في جنات النعيم، والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: الرضا بين العبد وربه

الرضا فرع من الإيمان، وهو من الدرجات العليا التي يصل إليها المؤمن، وهو من المقامات الرفيعة التي تصل إليها النفس الإنسانية، فتسعد بها، وتنال الطمأنينة والهدوء والكمال لذلك كان ثواب الرضا كبيراً، وأجره عظيماً.

والرضا من صفات المؤمن التي تلازمه في الدنيا والآخرة، وهو من المواهب الإلهية، والمنح الربانية على العباد في الدنيا والآخرة، فيشترك بها العبد وربه، ويصدر من الإنسان الرضا إلى خالقه، ويتفضل الله على المؤمن بالرضا، ولذلك جاءت عدة آيات في وصف المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

◈ تعريف الرضا: لغة:

الرضا من رَضِيَ يَرْضَى رِضاً، ورضواناً ومرضاة، واسم الفاعل: راضٍ، وهي راضية واسم المفعول مَرْضيّ، وهي مرضيّة، ويقال: هو رَضِيّ أي مَرْضي.

ورضيه ورضي عنه اختاره، أو طابت نفسه به، ورضي به: قنع وطابت نفسه به، ورضي عنه أحبه، ورضي عليه أقبل عليه بوده.

ورضيت بالشيء قنعت به، واكتفيت به، ولم أطلب معه غيره، والرضوان الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خصّ لفظ الرضوان في القرآن بما كان لله تعالى[1].

أما تعريف **الرضا شرعاً** ففيه تفصيل بين الرضا والصادر من العبد، والرضا الذي يريده الله تعالى، ويتفضل به، والرضا في الدنيا، والرضا في الآخرة.

---

(١) مفردات القرآن، معجم ألفاظ القرآن ٥٠٣/٣، بصائر ٧٣/٣، النووي على مسلم ٢/٢.

◈ رضا العبد في الدنيا:

عرف العلماء الرضا عدة تعريفات، كلها تدل على أحوال الإنسان وما يعتريه في مجابهة الأحداث، أو تدل على اختلاف أحوال الناس فيما يترل بهم.

قال ابن عطاء: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار الأفضل، وهو معنى تعريف ابن خفيف: الرضا سكون القلب إلى أحكام الله تعالى، وموافقة القلب بما رضي الله به واختاره، وقال رُوَيْم: الرضا استقبال الأحكام بالفرح، وقال المحاسبي: الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام، وقال النووي: الرضا سكون القلب بمَرِّ القضاء[1].

وتفيد هذه التعريفات أن **الرضا المحمود والمطلوب** من العبد في الدنيا هو أن يقبل بقضاء الله تعالى وقدره، وأن يقنع بما أعطاه ربه، وأن يرضى بما أنزل الله عليه، وأن يستسلم لمشيئة الله تعالى فيما نزل عليه، وألا يكره ما يجري عليه.

سُئل يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلتُ، وإنْ منعتني رضيتُ، وإن تَركتني عبدتُ، وإن دَعوتني أجبت.

ومن هنا نرى أن أساس الرضا هو **الإيمان بقضاء الله وقدره**، والشعور بأن كل ما يصدر عن الله تعالى هو من لطف الله بعباده، واختياره لهم الأفضل، بمقتضى علمه وحكمته وتقديره، وأن كل ما يجري في هذا الكون من فعل الله تعالى وإرادته ومشيئته، وأن ما أصاب الإنسان من خير أو شر هو من عند الله تعالى، فمن عرف ذلك حقاً أدرك حقيقة الإيمان.

---

(١) الرسالة القشيرية ص٨٩، روضة النعيم ١١٠، بصائر ٨٢/٣.

وهذا ما بينه رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: «إنَّ لكل شيءٍ حقيقةً، وما بلغَ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطِئه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1].

وهو ما أرشد إليه رسول الله ﷺ أيضاً بقوله: «واعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبَك، وما أصابَك لم يكن ليخطِئك» وفي رواية، «واعلم أن الأمَّة لو اجتمعت على أن ينْفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأَقْلامُ، وُجفَّت الصحف»[2].

وفي هذا التوجيه النبوي، والتربية الدينية، والعقيدة الدينية تنعم النفس بالطمأنينة واليقين، والرضا والتسليم، والقبول والتعويض، والبعد عن الغيبة والانشغال بما لا طائل تحته، ولا فائدة منه، ولا يغير من الأمر شيئاً إلا ضياع الوقت واضطراب النفس، وهو ما حذّر منه رسول الله ﷺ بقوله: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خيرٌ، احرِص على ما ينفعُكَ واستعِن بالله ولا تعْجز، وإن أصابَك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قلْ: قَدَّر الله وما شاء فعل، فإنْ لو تفتحُ عمل الشيطان»[3]، فإن الاعتراض يفضي إلى الخسران، ويورث القلق، ويضعف

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وخرج أبو داود وابن ماجه معناه في حديث زيد رضي الله عنه، جامع الإسلام ١٦٩.

(٢) رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ما مرفوعاً، الأربعين ص٥٠ رقم ١٩، جامع العلوم ١٦٠، مجمع الزوائد ٢٢٩/١.

(٣) رواه مسلم والإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. نزهة ١٣٣/١، الفتح ٢٥١/٣.

العزيمة، ويحبط العمل ويؤدي إلى التردد، لأن الزمن لا يرجع إلى الوراء.

والعلاقة متبادلة بين الرضا والإيمان، وهناك تفاعل مشترك بينهما، لأن الرضا في أصله فرع الإيمان بالله تعالى، والتسليم لحكمته ومشيئته، والقبول لقضائه وقدره، وبعد ذلك فإن الرضا يزيد الإيمان، ويحقق معناه، ويمنح الراضي حلاوة الإيمان، ويشعره بمذاقه الحلو، وطعمه اللذيذ، لقوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان منْ رضيَ بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»[1]، وقوله ﷺ: «من قال حين يَسمع النداءَ: رضيتُ بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً غفرت له ذنوبه» وفي رواية: «غفر له ما تقدم من ذنبه»[2].

وهذان الحديثان عليهما **مدار الإسلام، ومقامات الدين**، وكل منهما تضمن الرضا بربوبية الله تعالى وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد إليه، والرضا بدينه والتسليم له، ومن صدر منه ذلك إيماناً وتصديقاً، قولاً وفعلاً، عقيدة وسلوكاً فقد فاز برضاء الله تعالى عليه، ورضوانه في الدنيا والآخرة، وغفر ذنبه، ودخل الجنة.

كما أن هذين الحديثين يبينان **أسباب حصول الرضا**، ويحددان طريقه ومنهجه فالرضا بالله رباً يتضمن الرضا بتدبيره، وإفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة فيه والاعتماد عليه، وتخصيصه بالمحبة المطلقة، والإخلاص الكامل، والعبادة التامة، ثم التوجه إليه بالخوف والرجاء، والتبتل

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم عن العباس بن عبد المطلب ﷺ مرفوعاً. صحيح مسلم ٢/٢، مسند أحمد ٢٠٨/١.

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن سعد ﷺ مرفوعاً. الفتح الكبير ٢١٧/٣.

والدعاء، والثقة، والاتصاف بجميع صفات الكمال.

والرضا بالإسلام ديناً يتضمن الطاعة والاستسلام، والالتزام بشرع الله وأحكامه، والوقوف عند حدوده، والانقياد لأوامره، والتسليم المطلق لما جاء فيه.

والرضا بمحمد رسولاً يتضمن الإيمان برسالته، وأنه المصطفى المختار من ربه، وأنه رحمة للعالمين، وأنه البشير النذير، والرؤوف الرحيم، الداعي إلى الله تعالى بإذنه، والسراج المنير، وأنه القدوة المثلى، والأسوة الحسنة، وأنه المعلم للأمم، والمربي للأجيال، وكل ما قاله حق وصدق، يعضُّ عليه المؤمن بالنواجذ، ويلتزم بهديه، ويأخذ بسنته، ويقدم حبَّه على حب نفسه وأهله وماله، ويفديه بدمه وروحه، ويرضى بحكمه دون حرج، ويسلِّم له تسليماً.

وبذلك ينحصر سبيل الرضا بأمرين أساسيين: الرضا بقضاء الله وقدره، والرضا بكل ما يأمر الله تعالى في قرآنه، ويُنزِّل في شرعه، ويبين من أحكام دينه، فيكون المؤمن موجوداً حيث أمره الله تعالى، وبعيداً حيث نهاه، مع القبول والتسليم فيما أحب أو كره.

وليس من شروط الرضا من العبد ألا يحس بالألم والمكاره، لأن هذا أمر فطري، ولا يتنافى مع الابتلاء والاختبار، ولكن شرط الرضا أن لا يعترض العبد على الحكم، ولا يسخط على ما نزل، ولا يمقت المكروه، قال أبو علي الدقاق: «ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، وإنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء»، وتكون ثمرة الإيمان بالرضا قبول المقدور من المصائب والنوائب، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وعلمه وحكمته.

وينتج عن هذا الرضا ثمرة النفس المطمئنة التي تنعم برضا الله تعالى، وتقبل ما رضي لها وإن كان مكروهاً لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا

وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، هذه النفس التي تأنس لكل ما نزل بها، وتتصرف فيما يرضى الله تعالى في السراء والضراء، فإن أصابها خير شكرت الله عليه، دون بطر، وإن أصابها شر صبرت عليه دون جزع، حتى تصبح محلاً للعجب، كما قال رسول الله ﷺ: «عجب لأمر المؤمن»[1].

◈ منزلة الرضا:

والرضا **منزلة رفيعة من منازل الإيمان** فهو باب الله الأعظم، فمن تمتع بالرضا فقد أكرم بالتقرب الأعلى من ربه، وحظي بالترحاب الأوفى.

والرضا **أفضل من الزهد**، وأعلى مقاماً منه، فقد قيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: «إنَّ أبا ذر يقول: الفقرُ أحبُّ إليَّ من الغنى، والسقم أحبَّ إلي من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يُحبَّ غير ما اختاره الله له»، وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته»[2].

والرضا نهاية التوكل فمن رسخ قدمه في التوكل الصحيح على الله تعالى، واقترن بالتسليم له، ثم اتجه إليه بالتفويض، حصل له الرضا.

والرضا **أعلى درجة من الصبر**، لأن الصبر قد يقتصر على التسليم السلبي للإنسان عما أصابه من مكروه، وما نزل به من مصيبة، وما حل به

---

(١) إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن» رواه مسلم وأحمد من حديث صهيب، رياض الصالحين.

(٢) الرسالة القشيرية ص٨٩، ٩٠.

من جائحة، ويأتي الصبر بالدور الإيجابي بقبول ذلك، وهذا ما أراده أحد العلماء عندما سئل عن قول النبي ﷺ: «اللهم أسألك الرضا بعد القضاء»[1] قال: لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا والرضا بعد القضاء هو الرضا، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري «أما بعد: فإن **الخير كله في الرضا**، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر»، وقال ذو النون المصري: «ثلاثة من أعلام الرضا ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء»[2]، وخص أحد العلماء ذلك فقال: «الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا، ومحل راحة العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عين المشتاقين»[3].

◈ رضاء الله على العبد:

وكما يصدر الرضا من العبد في الدنيا، فإن الله تعالى يرضى على عباده في الحياة، ورضاء الله على العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره، ومنتهياً عن نهيه، وهذا الرضا جزاء من الله تعالى، ويكون رضا الله تعالى قبل ذلك بأن يلهم عباده للهداية، ويترل في قلوبهم الطمأنينة، ويفطرهم على الخير، ويهب نفوسهم الرضا، لأن الله تعالى هو الخالق أولاً، وهو المتصرف بشؤون خلقه ثانياً، ومن هنا ذهب بعض العلماء إلى أن الرضا موهبة من الله تعالى، وحالة تحل بالقلب.

---

(١) رواه النسائي والإمام أحمد عن زيد بن ثابت رضي الله عنهم: أحمد ١٩١/٥، المعجم المفهرس ٢٦٩/٢.

(٢) الرسالة القشيرية ص٩٠، روضة النعيم ١١٠ عن مدارج السالكين ١٧٧/٢.

(٣) بصائر ذوي التمييز ٨٢/٣.

وليس من شروط الرضا من الله لعبده أن يحميه من كل سوء، وأن يبعد عنه كل مكروه، وأن يجنبه البلاء، وألا تنزل به المصائب والنوازل، كما يتوهم بعض الناس، فإن البلاء والابتلاء قرب من الله تعالى ومحبة، وإذا أحب الله عبداً ابتلاه، وهذا محل الاختبار لزيادة الأجر والثواب ورفع الدرجات، ولذلك كان الأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الأولياء، ثم الأصلح فالأصلح[1].

وهنا تظهر العلاقة بين رضا الله تعالى على عبيده، ورضا العباد عن الله تعالى، فيبدأ الرضا الأصلي من الله تعالى لعبده بالفطرة والخلق والهداية والتوفيق، ويعقب ذلك رضا العبد عن ربه بما قضاه وقدره، ورضاه عن أحكامه وشرعه، ورضاه بما نزل به وأصابه، ثم يأتي رضاء الله مرة ثانية على العبد بقبوله، والتفضل عليه بالجزاء والثواب.

قال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، واعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق سبحانه إلا بعد أن يرضى عنه الحق سبحانه، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، ومن هنا يعرف الإنسان رضاء الله تعالى عليه بأن يجد قلبه راضياً عن الله تعالى، فيعلم أن الله راض عنه، وقيل: إن موسى عليه السلام طلب من ربه أن يدله على عمل إذا عمله رضي عنه، فأوحى الله إليه: يا ابن عمران، إن رضايَ في رضاك بقضائي[2].

---

(١) في الصحيحين: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة ابتلي على قدر ذلك، وإن كان فيه رقة هون عليه، فلا يزال البلاء بالرجل حتى يدعه يمشي على الأرض، وليس عليه خطيئة».

(٢) الرسالة القشيرية ص٨٩.

◈ الرضا في الجنة:

الرضا من صفات المؤمنين بالجنة، بأن يرضوا بثواب الله تعالى وجزائه، وأن يقنعوا بعطائه، ويطمئنوا لمكانهم، ويسعدوا بتحقيق الوعد لهم، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فتطيب نفوسهم بما جوزوا به.

كما أن الرضا في الآخرة من المقامات العليا، بأن يحصل المؤمنون على رضاء الله تعالى، فيجزل لهم الثواب على أعمالهم، ويجزيهم على ما قدموا، ويغفر لهم ذنوبهم، وينعم عليهم برضوانه وجنته، وهذا هو المراد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

لذلك ورد الثناء العظيم على المؤمنين بالرضا عن أعمالهم وسلوكهم، وأنهم رضوا بما أعطاهم الله تعالى في الدنيا، وما جزاهم به في الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

ووصف الله المؤمنين في الجنة يوم القيامة بأنهم يتمتعون برضاء الله الكامل، ورضوانه النهائي، فلا يطلبون غيره، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ

حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأثنى الله تعالى على رسوله محمد ﷺ أن أكرمه بالعطاء حتى يرضى، فقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، كما أثنى الله تعالى على سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]، والمؤمن يدعو ربَّه بالولد الصالح الرَضي، اقتداءً بدعاء زكريا عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦].

◈ حكم الرضا:

أجمع العلماء على أن الرضا بقضاء الله تعالى في الدنيا مستحب، وأنه مؤكد استحبابه لما ورد فيه من الترغيب، وما نزل فيه من الثناء، وما مدح به أصحابه.

واختلفوا في وجوبه على قولين، فقال الأكثرون: إنه غير واجب، لأنه لم يرد به الأمر، كما ورد في الصبر والتوكل والزهد وغيرها، وإنما جاء الثناء على أصحابه فهو مستحب، كما أن الرضا غير واجب لما يعتبر في بعض حالاته وأهواله من كونه أمراً فطرياً، وموهبة إلهية، لا كسب للإنسان فيها، ولا اختيار له في وجودها.

وقال بعض العلماء: إن الرضا واجب لأنه مطلوب من المكلف، ولأنه فرع عن الإيمان بالله تعالى، وهذا واجب، كما أنه فرع عن الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا واجب أيضاً، ولأنه يليق بجلال الله وكماله، ويرتبط بالعبودية الحقة من الإنسان[1].

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٨١/٣، الإيمان للدكتور محمد نعيم ياسين ص١١٠.

نسأل الله تعالى الرضا الكامل في الدنيا، كما نسأله الرضا في الآخـــرة، وأن يرزقنا العمل بكتابه، والرضا بدينه الذي رضيه لنا، والرضا بمحمد رسولاً والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: الرضا بقضاء الله وقدره

الرضا فرع من الإيمان، وهو من الدرجات العليا التي يصل إليها المؤمن، وهو من المقامات الرفيعة التي تصل إليها النفس الإنسانية، فتسعد بها، وتنال الطمأنينة والهدوء والكمال، لذلك كان ثواب الرضا كبيراً، وأجره عظمياً، ومنافعه عديدة.

والرضا من صفات المؤمن التي تلازمه في الدنيا والآخرة، وهو من المواهب الإلهية، والمنح الربانية على العباد في الدنيا والآخرة فيشترك به العبد والرب، ويصدر من الإنسان الرضا إلى خالقه، ويتفضل الله على المؤمن بالرضا، لذلك جاءت عدة آيات في وصف المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

◈ تعريف الرضا:

الرضا لغة من رَضِيَ يَرضى رضا، ورضوانا ومرضاة، واسم الفاعل: راضٍ، وهي راضية، واسم المفعول: مَرضي، وهي مرضيّة، ويقال: هو رَضِيّ، أي مرضي.

ورضيه ورضي عنه اختاره، أو طابت نفسه به، ورضي به: قنع وطابت نفسه به، ورضي عنه أحبه، ورضي عليه: أقبل عليه بوده.

ورضيت بالشيء قنعت به، واكتفيت به، ولم أطلب معه غيره، والرضوان الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خصّ لفظ الرضوان في القرآن الكريم بما كان لله تعالى[1].

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٩٧، معجم ألفاظ القرآن ٣/ ٥٠٣، بصائر ذوي التمييز، للفيروز أبادي ٣/ ٧٣، شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٢.

أما تعريف الرضا شرعاً ففيه تفصيل بين الرضا الصادر من العبد، والرضا الذي يريده الله تعالى، ويتفضل به، والرضا في الدنيا، والرضا في الآخرة.

◈ رضا العبد في الدنيا:

عرف العلماء الرضا عدة تعريفات، كلها تدل على أحوال الإنسان وما يعتريه في مجابهة الأحداث، أو تدل على اختلاف أحوال الناس فيما يترل بهم.

قال ابن عطاء الاسكندري: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار الأفضل، وهو معنى تعريف ابن خفيف: الرضا سكون القلب إلى أحكام الله تعالى، وموافقة القلب بما رضي الله به واختاره، وقال رُوَيم: الرضا استقبال الأحكام بالفرح، وقال المحاسبي: الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام، وقال النووي: الرضا سكون القلب بمَر القضاء[1].

وتفيد هذه التعريفات أن الرضا المحمود والمطلوب من العبد في الدنيا هو أن يقبل بقضاء الله وقدره، وأن ينتفع بما أعطاه ربه، وأن يرضى بما أنزل الله عليه، وأن يستسلم لمشيئة الله فيما نزل، وألا يكره ما يجري عليه.

سئل يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلتُ، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدتُ، وإن دعوتني أجبت[2].

ومن هنا دعا الله تعالى عباده إلى الرضا، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٨٩.

(٢) بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي ٣/ ٨٢.

ولذلك نرى أن أساس الرضا هو الإيمان بقضاء الله وقدره، والشعور بأن كل ما يصدر عن الله تعالى هو من لطف الله بعباده، واختياره لهم هو الأفضل، بمقتضى علمه وحكمته وتقديره، وأن كل ما يجري في هذا الكون من فعل الله تعالى وإرادته ومشيئته، وأن ما أصاب الإنسان من خير أو من شر هو من عند الله تعالى، فمن عرف ذلك حقاً أدرك حقيقة الإيمان، وقذف الله السكينة في قلبه، ورضي عنه، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وهذا ما بينه رسول الله ﷺ في الحديث الشريف، فقال: «إن لكل شئ حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1]، وهو ما أرشد إليه رسول الله ﷺ بقوله: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك» وفي رواية: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصحف»[2].

وفي هذا التوجيه النبوي، والتربية الروحية، والعقيدة الدينية تنعم النفس بالطمأنينة واليقين، والرضا والتسليم، والقبول والتفويض، والفوز برضوان الله

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود وابن ماجه بمعناه من حديث زيد رضي الله عنه (جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ١٦٩).

(٢) رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (جامع العلوم والحكم ص١٦٠، مجمع الزوائد ٢٢٩/١).

تعالى كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، بخلاف السخط والتذمر، والانشغال بما لا طائل تحته، ولا فائدة منه، مما لا يغير من الأمر في قضاء الله وقدره شيئًا، إلا ضياع الوقت، والحسرة على ما فات، واضطراب النفس، وهو ما حذر منه رسول الله ﷺ، فقال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعْجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1]، لأن الاعتراض يفضي إلى الخسران، ويورث القلق، ويضعف العزيمة، ويحبط العمل، ويؤدي إلى التردد، لأن الزمن لا يرجع إلى الوراء.

والعلاقة **وشيجة ومتبادلة** بين الرضا والإيمان، وهناك **تفاعل مشترك** بينهما، لأن الرضا في أصله فرع الإيمان بالله تعالى، والتسليم لحكمته ومشيئته، والقبول بقضائه وقدره، وبعد ذلك فإن الرضا يزيد الإيمان، ويحقق معناه، ويمنح الراضي حلاوة الإيمان، ويشعره بمذاقه الحلو، وطعمه اللذيذ، لقوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان مَنْ رضي بالله تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً»[2]، وقوله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: رَضيتُ بالله ربًّ،

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم والإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه (نزهة المتقين ١٣٣/١، الفتح الكبير٢٥١/٣).

(٢) هذا الحديث رواه مسلم والإمام أحمد عن العباس بن عبد المطلب (صحيح مسلم ٢/٢، مسند أحمد ٢٠٨/١).

وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، غفرت له ذنوبه» وفي رواية: «غفر له ما تقدم من ذنبه»[1].

وهذان الحديثان عليهما **مدار الإسلام، ومقامات الدين**، وكل منهما تضمن الرضا بربوبية الله تعالى وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن صدر منه ذلك إيمانًا وتصديقًا، قولاً وفعلاً، عقيدةً وسلوكًا فقد فاز برضاء الله تعالى عليه، ورضوانه في الدنيا والآخرة، وغفر ذنبه، ودخل الجنة.

كما أن هذين الحديثين يبينان **أسباب حصول الرضا**، ويحددان طريقه ومنهجه، فالرضا بالله يتضمن الرضا بتدبيره، وإفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة فيه، والاعتماد عليه، وتخصيصه بالمحبة المطلقة، والإخلاص الكامل، والعبادة التامة، ثم التوجه إليه بالخوف والرجاء، والتبتل والدعاء، والثقة، والاتصاف بجميع صفات الكمال.

والرضا بالإسلام دينًا يتضمن الطاعة والاستسلام، والالتزام بشرع الله وأحكامه، والوقوف عند حدوده، والانقياد لأوامره، والتسليم المطلق لما جاء فيه، فيكون الإسلام متمثلاً في حياة المسلم بالتطبيق.

والرضا بمحمد رسولاً يتضمن الإيمان برسالته ونبوته، وأنه المصطفى المختار من ربه، وأنه الرحمة المهداة للعالمين، وأنه البشير النذير، الرؤوف الرحيم، الداعي إلى الله تعالى بإذنه، والسراج المنير، وأنه القدوة المثلى، والأسوة الحسنة، وأنه المعلم للأمم، والمربي للأجيال، وكل ما قاله حق

---

(١) رواه مسلم والإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن سعد ﷺ مرفوعاً. الفتح الكبير ٢١٧/٣.

وصدق، يعضُّ عليه المؤمن بالنواجذ، ويلتزم بهديه، ويأخذ بسنته، ويقدم حبه على حب نفسه وأهله وماله، ويفديه بدمه وروحه، ويرضى بحكمه دون حرج، ويسلّم له تسليماً.

وبذلك ينحصر سبيل الرضا بأمرين أساسيين: الرضا بقضاء الله وقدره، والرضا بكل ما يأمر الله تعالى في قرآنه، ويتزّله في شرعه، ويبينه من أحكام دينه، فيكون المؤمن موجودًا حيث أمره الله تعالى، وبعيداً مفقوداً حيث نهاه، مع القبول والتسليم فيما أحب أو كره.

وليس من شروط الرضا من العبد ألا يحس بالألم والمكاره،لأن هذا أمر فطري، ولا يتنافى مع الابتلاء والاختبار، ولكن شرط الرضا ألا يعترض العبد على الحكم، ولا يسخط على ما نزل، ولا يمقت المكروه، قال أبو علي الدقاق: «ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، وإنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء» وتتجلى ثمرة الإيمان بالرضا في قبول المقدَّر من المصائب والنوائب، والاطمئنان إلى رحمة الله وعلمه وحكمته.

وينتج عن هذا الرضا ثمرة النفس المطمئنة الراضية التي تنعم برضا الله تعالى، وتقبل ما رضي لها وإن كان مكروهًا، لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، هذه النفس التي تأنس لكل ما نزل بها، وتتصرف فيما يرضي الله تعالى في السراء والضراء، فإن أصابها خير شكرت، دون بطر، وإن أصابها شر صبرت دون جزع، حتى تصبح محلاً للعجب، كما قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك

لغير المؤمن»[1].

ولذلك تستقبل النفس الراضية المرضية بالتكريم والترحاب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الرضا، وأن يجعلنا راضين مرضيين، والحمد لله رب العالمين.

(١) هذا الحديث رواه مسلم والإمام أحمد من حديث صهيب ﷺ.

خامساً: الشكر على النعم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أولاً: تمهيد ومقدمة: فإن الإنسان مدني بطبعه، يعيش مع الناس في المجتمع، ويتسامر معهم الأحاديث، يتبادلون المشاعر والأحاسيس، وما يلفت النظر في حديث الناس القلق والكمد، والغم والضجر، **وكثرة الشكوى والتأفف** من مختلف شؤون الحياة الخاصة والعامة، الشخصية والاجتماعية، والمادية والمعنوية، الجسدية والفكرية، وتسمع هذه الشكوى من الكبير والصغير، والغني والفقير، والزوج والزوجة، والأب والولد، والموظف والمدير، ورب العمل والعامل، والمسافر والمقيم، والمواطن والمشرد أو اللاجئ، والطالب والمعلم، والمريض والصحيح، والمؤجر والمستأجر، والتاجر والمشتري... ويصدق على هؤلاء جميعاً ما قاله الشاعر بوصفهم، والإنكار عليهم، والتذكير لهم، فقال:

كل من تلقاه يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن؟

ولا تقبل هذه الصوة بالشكوى والتأفف إلا في حالة واحدة وهي إذا كان المتكلم يبغي الكمال والتمام، والسعادة المطلقة، والتخلص من كل ألم أو منغص، وهذا لا يتحقق قطعاً ويقيناً في الحياة الدنيا، ويتوفر فقط في **الحياة الآخرة في الجنة** والفردوس حيث تخلو نهائياً من المتاعب والمصائب، والمشاكل والنواقص، وتخلص فيها السعادة والرفاهية التي لا يشوبها ما يكدرها، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وقال تعالى فيها: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقال عز وجل

مرددًا حال أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]، وهذا يوجب علينا التوجه للآخرة، والاستعداد للجنة بالعمل الصالح، والإخلاص الكامل والالتزام التام بشرع الله ودينه.

ثانيًا: كثرة النعم: فإن عدنا للدنيا فلا بد من نظرة فاحصة، وفكرة معتدلة، وإقرار بالواقع، والنظر بكلتا العينين، لندرك يقينًا كثرة النعم التي تفضل الله بها على الفرد والمجتمع، وعلى الأمة، والإنسانية، مما تنطبق عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ثم يختم الله الآية بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ثم ختمها بالعاقبة والبشرى، والتذكير بالإنابة والتوبة، والاعتراف بالخير والفضل والنعمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وإن نعم الله تعالى لا تحصى حقًا وحقيقة، وحسابًا وواقعًا، وأنها تتدرج من نعمة **خلق الله للكون** الذي أبدعه فأحسن خلقه وتبديره: من السماوات والأرض، والجبال والأنهار، والبر والبحر، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والرياح والهواء، والماء والغذاء..

ثم نعمة **الإيمان والإسلام**، والهداية والشرع القويم، وما فيه من أحكام وهدي وتوجيه، وأخلاق وقيم وتشريع وتهذيب، وتربية وتعليم...

ثم نعم **الجسم والعقل**، والفكر والحواس، والرأس والأعضاء، وأجهزة الهضم والتنفس، ودوران الدم، والغدد، واليدين والرجلين، والصحة والعافية كليًا أو جزئيًا.

ثم نعمة **المال** في جله وقله، وكثرته وندرته، وأنواعه وأجناسه، وكسبه وإنفاقه، ومأكوله ومشروبه...

ويضاف إلى ذلك **نعمة الأمن والأمان**، والاستقرار والبقاء، والستر والعافية، ونعمة الشباب والقوة..

وكل هذه **النعم من الله تعالى** المنعم المتفضل على الإنسان، مما خلقه له وقدره فأحسن تقديره، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]، ثم أوجب الله تعالى الاعتراف بالنعمة والإقرار فيها، والتحدث بها، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]، ثم أمر بها فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [فاطر: ٣].

ثالثاً: وجوب الشكر على النعمة: وإن هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى **توجب الشكر لله تعالى عقائدياً** بالإيمان بأنها من فضل الله تعالى وإحسانه مع التسليم بها، وتقبلها، والعبادة فيها، والطاعة لرب العزة المتفضل بها.

وهذه النعم توجب الشكر عليها أخلاقياً، فمن أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، وتقتضي الأخلاق الفاضلة أن يجازي الإنسان من أحسن إليه، وأنعم عليه، مهما كانت النعمة، لمقابلة الإحسان بالإحسان، والمعروف بالمعروف، والعطاء بالتقدير والعرفان.

رابعاً: الدعوة للشكر: وإن الله تعالى أمر، **وأوجب، الشكر على العباد** لخالقهم ورازقهم، والمنعم عليهم، وذلك بنصوص صريحة وقطعية، قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦]، وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فوجه الله تعالى النداء للمؤمنين أولاً، وبين أنه الرازق لهم ثانياً، وأمرهم بالشكر ثالثاً، وربط ذلك بالعبادة رابعاً.

وأكد الله تعالى ذلك في آية أخرى، فقال عز وجل: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤].

وربط الله تعالى بين الأمر بذكره، والأمر بشكره في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي ﴾ ثم زاد على ذلك بالتهديد لمن يتخلى عما أمر، وأنه يوصل للكفر والعياذ بالله، فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فعدم الشكر كفر بالنعمة وجحود لها، وتقصير في الإيمان والعبادة والطاعة، وفساد في الأخلاق والسلوك.

وجعل الله شكر النعمة وصية منه للإنسان، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

ودعا الله تعالى للشكر، وأنه **مرضاة لله تعالى**، فقال عزوجل: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ وقابل ذلك مع أول الآية فقال تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر: ٧].

ورتب الله تعالى **الشكر على التقوى**، فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وشرع الله تعالى **الذكر والعبادة والتكبير** لله

تعالى وسيلة للشكر، فقال تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

كما جعل الله تعالى **عفوه على عباده** وسيلة للشكر، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢]، وكذلك جعل **البعث بعد الوفاة** وسيلة للشكر، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]، وكذلك جعل **التطهير والطهارة وإسباغ النعم** وسيلة للشكر، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وكلمة «لعل» للترجي في اللغة، ولكنها من الله تعالى للطلب والتحقيق والتأكيد.

وأكد ذلك القرآن الكريم أن **الإيمان والعقيدة وبيان الآيات** دعوة للشكر، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وذكر الله تعالى **بعض نعمه على عباده وخلقه**، وأنها توجب عليهم الشكر لله تعالى، فقال عز وجل: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]، وقال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

خامساً: الشكر سنة الأنبياء والرسل والصالحين: وهذا ما ذكره الله تعالى في سيرة الأنبياء، وقصص المرسلين، ووصايا الصالحين، فوصف الله تعالى **إبراهيم أبا الأنبياء** عليه وعليهم السلام بقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]، وقال تعالى عن **نوح** عليه

السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] وحكى سبحانه وتعالى دعاء **سليمان** عليه السلام المتضمن لشكر الله تعالى، فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، فبدأ الدعاء للتوفيق لشكر نعم الله تعالى، وتكرر نفس الدعاء، والصيغة عند الوصية للإنسان عامة إذا بلغ الكمال والرشد، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا...﴾ ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وكان **رسول الله** ﷺ يتعبد، ويذكر الله تعالى، ويقوم الليل، ويصلي حتى تتورم قدماه الشريفتان، ويسأله الصحابة عما يحمّل به نفسه مع أن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وكان الشكر من **وصايا لقمان الحكيم** التي حكاها الله تعالى عنه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

سادساً: حقيقة الشكر: تتمثل حقيقة الشكر في ثلاثة أمور رئيسة:

الأول: أن الشكر الحقيقي للنعم هو **باستعمال النعمة فيما أعدت له** الإعداد الصحيح الكامل الدقيق النافع المحقق للغرض من خلقها وإيجادها

والإنعام بها، وذلك في جميع النعم المشار إليها في مطلع البحث، سواء كانت النعم كونية، أو إيمانية أو مالية، أو جسدية، أو معنوية، بالجسم في عمل الخير، أو بالمال للكسب والإنفاق بالطرق الحلال، أو بالسمع والبصر فيما يرضي الله، أو باللسان لذكر الله وفعل الخيرات، وهكذا...

الثاني: استعمال النعمة في مرضاة الله تعالى: لتكون خالصة من الشوائب والرياء، ويكون الهدف من ذلك تحقيق الأمر الأول من جهة، وقصد رضوان الله تعالى والإخلاص له لتحصيل الأهداف والغايات، وكسب الرضا والرضوان في الدنيا والآخرة.

والثالث: النطق باللسان والجنان، وذلك بإعلان الشكر سراً وجهراً، ذكراً ودعاء وثناء، اعترافاً وإقراراً، بياناً وتطبيقاً.

سابعاً: فائدة الشكر ومنفعته: إن شكر الله تعالى على نعمه يحقق فوائد جلى، ومنافع كثيرة، نعددها باختصار:

١- إن الشكر هو **نتيجة مثمرة للأسباب الموجبة له** عقائدياً، وإيماناً، وعبادة، وأخلاقاً، وسلوكاً قويماً.

٢- إن الشكر يمنح صاحبه **طمأنينة** في الدنيا، ورضى قلبياً، وراحة نفسية، ومراقبة حية، وسعادة غامرة، فتقل الشكوى أو تنعدم.

٣- إن الشكر يمثل **اعترافاً** بالفضل لأهله، وهو الله تعالى: المنعم المتفضل، الشاكر الشكور.

٤- إن الشكر **ضمان** للحفاظ على النعمة وبقائها واستمرارها، حتى قيل: «وبالشكر تدوم النعم».

٥- إن الشكر رجاء وأمل في **زيادة النعمة** بوعد الله تعالى في ذلك، لقوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

٦- الحصول على الأجر والثواب نتيجة الشكر، وأن الله تعالى يجزل ثواب الشاكرين، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

٧- **دفع البلاء عن الشاكر**: وهو ما ورد في آخر الآيات السابقة في فائدة الشكر، وأن تركه كفران للنعمة، وأن الله غني حميد كريم، وأن الله تعالى يرفع البلاء والعذاب عن الشاكرين، قال عز وجل: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧]، فربط الله تعالى بين الإيمان والشكر، وأن الله عليم بخلقه وبالشاكرين، وأنه شاكر لهم فعالهم.

٨- **إن من أسماء الله الحسنى الشاكر والشكور**، وهي من الأسماء والصفات التي يدعو الله تعالى لتمثلها، والسير عليها.

ثامناً: التحذير من كفران النعمة، والإيذان بزوالها عند عدم الشكر، وهو منهج القرآن الكريم في الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، والأمر والنهي، والإيجاب والتحريم، ولذلك حذر القرآن الكريم من كفران النعم، لأنه إنكار للجميل، وجحود لفضل المنعم، وعامل على زوالها أو قطعها، وتوقف

استمرارها وتتابعها، وهو في حد ذاته ظلم للنفس، ويجر عليها الويلات وأسوأ العواقب، فوصف الله تعالى حال هذه الزمرة منكراً ومستغرباً، قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، وقوله ﴿رِزْقَكُمْ﴾ أي ما رزقكم الله تعالى وأنعم عليكم، ثم أخبر الله تعالى أن كفران النعمة، وترك الشكر عليها، هو حال معظم الناس، فقال عز وجل بعد أوصاف عدة، وحالات متباينة، ومواقف مختلفة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، [يوسف: ٣٨]، [النمل: ٧٣]، [غافر: ٦١]، ثم أكد الله تعالى هذه الصورة، فقال عز وجل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

نسأل الله تعالى أن يتم نعمه علينا، وأن يزيدها، ويبارك فيها، وأن يرزقنا الله شكرها ودوام الشكر عليها، والثواب الجزيل عن الشكر، فالله هو الرازق والمنعم، وهو المثيب بالأجر عما أعطى سبحانه وتعالى، وبالتالي تتم معالجة الشكوى، وتنعدم مظاهرها من الحياة، وعلى ألسنة الناس، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

سادساً: موقف الدين والشرع من الاتكالية

إن الاتكالية ظاهرة مرضية اجتماعية نفسية، وتسربت إلى الناس عامة والمسلمين خاصة من بعض الشعوب الخاملة الكسولة، ومن بعض الفلسفات البائدة القديمة.

ويجب التفريق فوراً بين التوكل والاتكالية، فالتوكل فرع من فروع العقيدة والتوحيد ويعني اعتماد المسلم في شؤونه كلها على الله، والاستعانة به، والتفويض إليه، وهو أمر شعوري قلبي يمنح المؤمن طمأنينة وثقة وراحة وسعادة، ويقترن قطعاً ويقيناً مع العمل والجد والنشاط والحيوية، أما الاتكالية فتعني الخمول والكسل والارتخاء وترك العمل والاعتماد على الآخرين والاستسلام، وتؤدي للخضوع والخنوع والذل والفقر وترك العمل والنشاط.

ولذلك فإن الإسلام يحارب الاتكالية، ويتخلى عنها، بل يحاربها، ويحرمها، ويحمل صاحبها المسؤولية في الدنيا والآخرة، ويؤاخذ فاعلها، لأن الإسلام ربط جميع الأمور بالعمل والكسب، حتى الإيمان لا يكفي بدون عمل، وجاءت الآيات القرآنية تربط بين الإيمان والعمل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وربط الإسلام الجزاء في الدنيا والآخرة بالعمل ﴿فَمَن يَعْمَلْ ...﴾ ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

ومارس ذلك رسول الله ﷺ بسيرته العملية، وتربيته للصحابة، ومنهجه في الحياة، فكان راعي الغنم قبل النبوة، ثم تاجراً، ثم قام بالدعوة بدون كلل ولا ملل، ولم يعرف الراحة، وجاهد في الله حق جهاده، وكان إمام الدعاة، ورئيس الدولة، وقائد الجيش والقتال، ويشارك صحابته في حفر الخندق،

ويصر على المساهمة حتى في إعداد الطعام في السفر، وكان في مهنة أهله في البيت، ودعا إلى العمل والسعي والمنافسة بأحاديث كثيرة، منها قوله: «ما أكل أحد طعام قط خير من أن يأكل من عمل يده» ووجه نصيحته للأمة عامة والشباب خاصة في الحث على اغتنام الفرص، والاستفادة من الوقت والحياة والشباب والفراغ، فقال: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل مرضك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك» وكان صحابته خير جيل عرفه التاريخ في الجد والاجتهاد والكسب والعمل، وخاصة الشباب ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] وجاهدوا في الله حق جهاده، وكانوا مثل خلية النحل، ومارسوا جميع الأعمال العلمية والعملية في جميع أنواع التجارة والزراعة والصناعات، حتى سادوا العالم، وكوَّنوا أعظم حضارة مادية، وعالج القرآن الكريم بعض الأمراض النفسية التي تدعو للاتكالية، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧] وقال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] يعني أن المسلم لا يبقى في المسجد بعد أفضل صلاة في الإسلام وهي صلاة الجمعة بل يذهب للعمل والكسب وابتغاء الرزق والعمل للدنيا.

كما حذر رسول الله ﷺ من الخلل والإفراط والتفريط حتى في أمور الدين، فقال عليه الصلاة واسلام: «إن لربك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه»، وأعلن براءته ممن

اتجه إلى الرهبانية وترك العمل والكسب وهم الثلاثة التي قصدوا الآخرة مما يؤدي للتخلي عن العمل والكسب أو إتقانه وإعطائه حقه، فنذر أحدهم عدم التزوج، والثاني قيام الليل، والثالث دوام الصيام، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إني أصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وندد بمن انصرف للطاعة والعبادة وأهمل حق زوجته وليس لمجرد الكسب والاتكالية، ومنع الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص من دوام الصيام، وقيام الليل الذي يؤدي لإهمال واجباته، ولذلك قرر الإسلام النفقة على الرجل، وحرم الزكاة والصدقة على الشاب «ذي المرة القوي»، فكيف بمن يضيع الوقت باللهو والعبث أو بالنوم واللامبالاة، أو بالمحرمات؟

وأدرك الصحابة ذلك والتزموا بتوجيهات القرآن والسنة، ولما رأى عمر ابن الخطاب ﷺ إنساناً معتكفاً في المسجد للصلاة (وليس للنوم والاسترخاء والكسل) وترك العمل، ضربه بالدرة وأمره بالكسب والعمل، وقال له قولته المشهورة: «إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة» ولما أثنى الصحابة على رجل زاهد منقطع للعبادة، فسألهم رسول الله «ومن أين يأكل ويشرب؟» أجابوا: كلنا نطعمه ونسقيه، فقال عليه الصلاة والسلام «كلكم أفضل منه» ولهذا تحرم الاتكالية، ويتبرأ منها الدين والإسلام، وتتنافى مع أحكام الشرع، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، والحمد لله رب العالمين.

سابعاً: الإسلام والعمل[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وبعد: ففي هذا الموضوع طرح سؤالان، وهما: حض الإسلام على العمل، والثاني: أهمية العمل عندما يصبح مهنة، وكثيراً ما يتم توارثها، وتلصق بصاحبها؟

١- **حض الإسلام على العمل**: إن العمل مرافق وملازم للإنسان، للكسب والرزق وإعمار الكون وتأمين متطلبات الحياة.

ولذلك قرر ذلك القرآن الكريم في بيان الهدف والغاية من خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، فالإنسان خلق للعمل أولاً ثم ليختبر في العمل الأحسن والأفضل، كما أكد ذلك القرآن الكريم في بيان الغاية من وجود الإنسان على الأرض، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، فالإنسان وجد على الأرض لإعمارها، وهذا لا يتم قطعاً إلا بالعمل.

واعتبر الإسلام العمل أساساً في الإيمان والنجاة عند الله تعالى، ولذلك عرف العلماء الإيمان بأنه «ما وقر في القلب وصدقه العمل» لأن مجرد النطق بالإيمان لا يكفي، فالببغاء يردد ذلك، والمنافق يظهر الإيمان ويبطن الكثير، فالعمل هو المعيار وهو الميزان الوحيد للحساب والجزاء في الدنيا، وقد يكون

---

(١) مشاركة جانبية في حلقة تلفزيونية في قناة الشارقة الفضائية ضمن برنامج «الإنسان والحياة» للمخرج خليل، وسجلت في مكتب العمادة يوم الأحد ١٤٢٦/١/١٢هـ، ٢٠٠٥/٢/٢٠، الساعة ١٠,٣٠ وستذاع في الدورة الثانية (أبريل ٢٠٠٥).

الوحيد غالباً في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩].

وربط القرآن الكريم في معظم الآيات بين الإيمان والعمل، وبدأ بها مطلع الآيات، قال تعالى في آيات كثيرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، [يونس: ٩]، [هود: ٢٣]، [الكهف: ١٠٧، ٣٠]، [مريم: ٩٦]، وختم القرآن الكريم كثيراً من الآيات بالعمل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ١١٠، ٢٣٧، ٢٣٣]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠]، [آل عمران: ١٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وتكررت لفظة «العمل» ومشتقاتها في القرآن الكريم ٣٥٩ مرة، بالإضافة إلى الألفاظ الكثيرة التي ترادف العمل مثل كسب، جنى، فعل، وغيرها.

ومن هنا قرر الشرع الحنيف وجوب العمل والكسب للدنيا والآخرة معاً، فقال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]. وجاء في الأثر: «**اعمل لدنياك** كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» للاستعداد للموت وعدم **التأجيل والتسويف**، ويجب في الإسلام العمل في مختلف جوانبه، سواء فيما ينفع الفرد أو المجتمع أو الأمة أو البشرية، حتى ما ينفع الحيوان، والشرط الوحيد أن يكون نافعاً وخيراً مطلقاً، مع التحذير من العمل الضار الذي

يلحق الفساد والشر بصاحبه أو بغيره، وهذا ما قرره القرآن الكريم في أدق تعبير في الدنيا وفي اللغة، فقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وحض الإسلام على العمل بصيغة صريحة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وذلك ليكون الحساب والجزاء في الدنيا والآخرة بحسب العمل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١]، وقال تعالى عن الحساب يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]، وقال تعالى في آيات كثيرة على لسان الأنبياء في الدعوة للعمل والحض عليه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩].

وإن ثمرة العمل ونتيجته هي الرصيد الذي يدخره الإنسان، وهو المستوى الذي يحدد مكانته ودرجته في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وأن الناس يتقابلون بالعمل، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩]، وقال عز وجل: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وإن الله تعالى لا يغفل عن أعمال البشر، وخاصة

أعمال الشر والظلم والبغي، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وهذه التوجيهات القرآنية، والإرشادات النبوية، لم تبق حبراً على ورق، وليست نظريات فلسفية فكرية، بل التزم بها المسلمون في حياتهم، وانتقلوا من مؤخرة الأمم إلى قيادة العالم، وأقاموا الدنيا حضارة وعلماً ومدنية ورقياً وازدهاراً، وعملوا لآخرتهم فوق ذلك، فكانوا كما وصفهم أحد الكتاب «رهبان في الليل، فرسان في النهار» وهذه الحضارة الإسلامية المادية العلمية خير شاهد على عملهم، وإتقانهم، وتفانيهم، وإخلاصهم، مما يدعونا للسير على خطاهم.

وإن الدول المتقدمة الآن عالمياً إنما تقدمت بالعلم والعمل، وتمتاز بعض دول العالم بصناعتها نتيجة لإتقانها وجودتها حتى تنافس الإنتاج العالمي، وتغرق الأسواق.

وهذا ما سبق إليه الإسلام عندما دعا إلى إتقان العمل ليكون في أرقى درجاته، وأحسن مستوياته، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً إن يتقنه» وسبقت الآية في طلب ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

ولذلك وضع الحكماء والعلماء والحكام القاعدة الأساسية في تحديد قيمة الإنسان ومكانته بحسب عمله، وإتقان عمله، فيقولون: «الإنسان وما يعمل»، ويقولون: «قيمة الإنسان بما يعمل».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: يعجبني الرجل فأسأل عن عمله، فإن قيل: لا يعمل، سقط من عيني.

وعندما رأى عمر ﷺ شخصاً متفرغاً للعبادة في المسجد، ويدعي التوكل على الله، ضربه بالدرة، وأمره بالذهاب للعمل والكسب وطلب الرزق، وقال له عبارته الخالدة: «لقد علمت أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة». وقال عنه وعن أمثاله هؤلاء: متواكلون، ومتآكلون، لا يتوكلون، فالتوكل على الله تعالى يوجب العمل والأخذ بالأسباب أولاً، ثم الاعتماد والتوكل على الله ثانياً، ثم الدعاء، وهذا منهج الرسول ﷺ في حياته، كالهجرة مثلاً، فقد خطط لها تخطيطاً محكماً حتى في أصغر الجزئيات، واحتاط بشكل كامل، ثم توكل على الله، واعتمد عليه، واستعان به، والله سبحانه يقول: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فلابد من العزيمة والعمل قبل التوكل، وفي بدر أخذ رسول الله ﷺ الأهبة الكاملة للقتال، والتخطيط للمعركة، واختيار المكان المناسب، وتوزيع المقاتلين، وإلهاب الحماس لهم، وترغيبهم بالقتال، ووعدهم بالنصر والشهادة، ثم تنحى جانباً للدعاء لله تعالى بالنصر، وليقول: «اللهم وعدك الذي وعدت، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض» وألح في الدعاء والاستعانة، ولج في طلب النصر من الله، حتى سقط عنه رداؤه، فقال له أبو بكر ﷺ: «هوّن عليك يا رسول الله إن الله منجز لك وعده»، وهكذا في جميع شؤون الحياة، وهو ما سار عليه الصحابة رضوان الله عليهم في الأمور الخاصة والعامة، وفي قيادة الأمة والفتوحات وتبليغ الدعوة، والتزم بها التابعون ومن بعدهم، وقال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فأمر بإعداد القوة بمنتهى قدر الاستطاعة قبل التوجه للقتال، وقبل خوض

المعركة، وهذا الإعداد، والاستعداد يرهب الأعداء ويرعبهم، وقد يكبح جماحهم ويردهم على أعقابهم، ويكفي الله المؤمنين القتال.

٢- **العمل والمهنة**: إن الالتزام الشرعي بالتوجيه الديني نحو الحض على العمل وتكريمه، وإن الباعث الفطري على حب العمل، واتخاذه مهنة وحرفة، وإن الدافع الذاتي والشرعي والعقلي والمصلحي لإتقان العمل، دفع الناس من عمال، ومهنيين، وأرباب عمل، على ممارسة العمل ضمن مهنة معينة، والتفرغ له، وملازمته طوال العمر غالباً، لتصبح المهنة غالبة على حياته، ولصيقة بشخصه، وكثيراً ما يتباهى بنسبته إلى المهنة، ويعرفه الناس والأصحاب والأقارب والأهل بالمهنة، فينادونه بها، ويتقبل ذلك اللقب، وقد يفتخر به، وينتسب إليه، وكثيراً ما يترك نسبته الأصلية ليلتحق بالنسبة الجديدة إلى المهنة، ويحرص عليها، بل لينقل المهنة والنسبة لأولاده وأحفاده مدى الأجيال.

وهذا ليس أمراً نادراً، أو خاصاً ببلد، أو مهنة معينة، بل هو غالب شائع في البلدان، والمهن، والأشخاص، طوال التاريخ، ولا تزال حتى الآن، وصار الانتساب إلى المهن مألوفاً ومتداولاً في حياة المسلمين.

فمن ذلك على سبيل المثال: الحداد، وابن الحداد وآل الحداد والنجار، وابن النجار، وآل النجار، والخباز وابن الخباز، وآل الخباز، والصابوني، وابن الصابوني، والصيدلاني، والصايغ، والبزاز ،وهو تاجر البز وهو (القماش) والكتاب، والكتبي، والوراق، والمحمصاني، والحريري، والقهوجي، والخطيب، والراعي، والخضري، والباقلاني.

وأكثر من ذلك فقد كان أصحاب المهن يشكلون تجمعاً وجمعية، لرعاية

مصالحهم، وعلى شكل نقابات في عصرنا الحاضر، ويتولى أكبرهم، أو أشهرهم الزعامة والرئاسة، وتصبح له نسبة يعرف بها، وتنتقل إلى ورثته وأولاده، منهم شيخ الصاغة، وشيخ الحدادين، وشيخ النجارين، وشيخ الكتاب، وأسماء هذه العائلات العريقة موجودة في بلادنا، وحياتنا، ومجتمعاتنا، ويعتز بها أهلها وأصحابها، مما يؤكد أهمية العمل، وقداسته، وصلته بالحياة، والحرص عليه، ويعتمد القضاة وغيرهم على أهل الخبرة في كل مهنة.

ونرجو الله أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، وأن يوفقنا للعمل بكتابه وسنة نبيه، وأن يرزقنا العمل الطيب النافع المبارك، وأن يعيننا على حسن العمل وإتقانه، تنظيماً وإدارة وتطبيقاً، والحمد لله رب العالمين.

ثامناً: الصبر عند الابتلاء

◈ الدنيا دار ابتلاء:

إن المتأمل في مجريات الحياة، والمفكر في حقيقة الدنيا، والناظر في واقع الإنسان، يجد أن الدنيا دار ابتلاء وبلاء، ودار اختبار وامتحان، فيها الحلو والمر، فلا تصفو لأحد، ولا يمكن أن تكون نعيماً دائماً، ولا سعادةً مطلقة، لذلك وصفها رب العالمين، وبين حقيقتها، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، كما أن الابتلاء في الدنيا لا يقتصر على المصائب والشرور، بل يشمل أيضاً النعم والخيرات، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥]، فلا يقتصر الاختبار على البلاء وما فيه من مرارة وألم، بل يشمل الخير وما فيه من لذة وسعادة، ليظهر حال الإنسان في الأمرين، ولكن إذا أطلق الابتلاء فينصرف إلى النوع الأول فقط.

والمرء يتعرض -قطعاً ويقيناً- للابتلاء في النوائب، ويترل به الهم والحزن، ويقع النقص والشر في ماله أو نفسه أو ولده، ويصيبه المكروه في كل آن، وتحل به عوادي الزمن في كل حين، وتقترن بالخطب المؤلم، والشعور الموجع، والإحساس المهول، ويصبح المرء بين الجزع والهلع، أو الضجر والشكوى، وبين القبول والرضا، والامتثال والصبر على ما نزل به، وهو ما نريد بيانه.

والمصائب في الدنيا كثيرة، ولا حصر لها، وقد جاءت مجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾[البقرة: ١٥٥]، وهذه المصائب المذكورة في الآية هي -في الحقيقة-

مصائب كبيرة، وبلايا عظيمة، تنتظم ثلاثة أصناف، الأول: الخوف وعدم الأمن، والثاني: الجوع والفقر والفاقة وقلة الطعام الذي يصل إلى الموت، والثالث: النقص في الأموال بالخسارة أو التلف أو الحريق أو السرقة والغصب، أو ذهاب المال بالجوائح، والنقص في الأنفس بالموت والمرض والحريق والقتل والقتال والحوادث والفتن والأزمات، ولكن الواقع أن هذه المصائب الخطيرة لا يحس بها إلا من وقعت عليه، ولا يشعر بها إلا من أحاطت به، ولا يقدر قدرها إلا إذا حلت بكلكلها عليه، فالوجع لا يحس به إلا صاحبه، واليتم لا يعرف طعمه إلا من ذاقه، والفقر لا يدرك ألمه إلا من عاشه، حتى كاد الفقر أن يكون كفراً.

فالدنيا دار ابتلاء وكربة وغم، فإن أضحكت شخصاً أبكت آخر، وإن أحزنته وقتاً أبكته في غيره، وإن سرت عائلة أساءت قريبتها.

قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «لكل فرحة ترحة، وما ملئ بيت فرحاً إلا مُلئ ترحاً، ولا يخلو إنسان من مصيبة».

والمصيبة هي المكروه الذي يحل بالإنسان، والنكبة التي تقع به، وتستعمل في الشر وإن صغرت، روى عكرمة مرسلاً: «أن مصباح النبي -ﷺ- انطفأ ذات ليلة، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: «نعم، كل ما آذى فهو مصيبة».

◈ الصبر على المصيبة:

وإزاء هذا الواقع في طبيعة الحياة، وما فيها من ابتلاء، يأتي الصبر أفضل علاج، وأنجع دواء، ليكون الصبر على المصيبة عزاء للنفس، وتفريجاً للكرب، وزيادة في الأجر.

والصبر في ذاته خلق فاضل من أخلاق النفس الإنسانية، يمنعها من فعل القبيح والمكروه، ويمنحها القوة في الصلاح والقبول، ويعزز فيها الاستعداد لتخطي البلاء، ويدفعها لممارسة شؤون الحياة، ويبعدها عن وساوس الشيطان، ويقطعها عما مضي، لتستفيد من الحاضر، وتستعد للمستقبل.

وقد شرع الدين الحنيف الصبر، وندب إليه، ورغب فيه، وطلبه بنصوص كثيرة، وأوامر صريحة، والأمر للوجوب، كما يقول علماء اللغة وأصول الفقه، والواجب هو طلب الفعل الجازم، مع الثواب على فعله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة/١٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين، وإنما اختلفوا في وجوب الرضا»، فالصبر لا اختلاف في طلبه.

وقد وصف الله تعالى الأنبياء به، وجعله من شيم الأولياء والصالحين، والمتقين والمقربين وأن الله مع الصابرين، وقرنه بفضائل الأعمال، ودعا إليه المؤمنين، وجعله من الهدي القويم، والسنة المتبعة، والسيرة الحسنة عن الأنبياء والمصلحين والعقلاء.

والصبر أمر نفسي، ينتج عن عوامل متنوعة، وأسباب متعددة، كالإيمان والعلم والخبرة في الحياة، ويخضع الصبر لمؤثرات مختلفة تضعفه أو تقويه، وأكبر عامل ومؤثر لتحقيق الصبر هو الإرادة القوية، والعزيمة الجادة، والحرص على تحقيق الغايات التي يضعها المصاب أمام عينيه، ولذلك ورد في الحديث

الشريف «ومن يتصبَّرْ يُصَبِّرْه الله»، فالصبر دواء داخلي، وعلاج ذاتي، وإحساس باطني، ينبع من قلب المرء، ولا يفرض عليه من الأعلى، ولا يتناوله من غيره.

◈ حقيقة الصبر وفوائده:

والصبر على المصيبة هو أن يحتسب الإنسان أمره عند الله تعالى في كل مكروه يصيبه، أو إيذاء يكدِّر صفوه، أو ضرر يلحقه، ويدخر ذلك ذخراً عند الله تعالى، ويرضى بقضاء الله وقدره، لأنه لا يمكنه ردّه، ولا يستطيع إعادة الزمن إلى الوراء، ولا استرجاع الماضي لتدارك ما فات، فيسلِّم شأنه لله عز وجل، ويردد قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ويعترف بقلبه ولسانه أنه «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، فيفرج عن نفسه الكرب، ويزيل عنها الغم، ويسليها بالقول الحق، ليمنحها القوة في الحياة، ويمشي في مناكب الأرض، ويسعى في رزق الله، ويقضي على الفراغ فيما لا يملك.

وقد أرشد الرسول ﷺ المصاب إلى ما يجب عمله عند نزول المصيبة بأن يحتسب أجرها عند الله تعالى، فإن فعل عوضه الله خيراً منها، فعن أبي سلمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبةٌ فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي، وآجرني فيها، وأبدلني خيراً منها» وزاد ابن ماجه: «إلا آجره الله عليها، وأبدله خيراً منها»، قال العلماء: والاحتساب في المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر، وتحصيله بالتسليم والصبر باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم طلباً للثواب المرجو منها، وقال سعيد ابن جبير: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله».

◈ ثواب الصبر على البلاء:

وقد خُص الصبر على البلاء بالأجر العظيم، والثواب الكبير، وميزه الله تعالى على فضائل الأعمال، وأركان الإسلام، لأنه ثمرة الفضائل والأعمال الحميدة، فأعطاه ثواباً غير محدود، وأجراً غير مقطوع، وبين ذلك لعباده في القرآن الكريم، ترغيباً بالصبر، وحثاً للمصاب على التزين به، والاتصاف فيه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وذكر ابن منجويه في تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تنصب الموازينُ يوم القيامة، فيُؤتى بأهل الصلاة فيُوَفّوْن أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصيام فيُوَفّوْن أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج، فيُوَفّوْن أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويُصب عليهم الأجرُ صباً بغير حساب، ثم قرأ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تُقرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل»، وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]، قال: «الرضا بالمصيبة، والتسليم»، وقال غيره: فصبر جميل لا شكوى فيه.

وهكذا يتلقى المؤمن المصيبة بالقبول، موقناً بأنها من عند الله ابتلاءً واختباراً، وإن استطاع أن يكتمها فذلك خير وأبقى، قال بعض السلف: «ثلاثة من كنوز الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان المرض، وكتمان الصدقة» فلا يشتكي مصيبته إلا لله تعالى، ولا يطلب الفرج إلا من الله تعالى، ولا يستعين على مصيبته إلا بالله تعالى، فهو نعم المستعان، وعليه التكلان، ولا

يرد عبداً خائباً.

فعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع (أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون)، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسمّوه بيت الحمد».

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله سبحانه: ابنَ آدم، إن صبرتَ واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرضَ لك ثواباً إلا الجنة»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لامرأة اشتكت إليه، وطلبت منه الدعاء بالشفاء، فقال لها: «إن شئتِ صبرت ولكِ الجنةُ، وإن شئتِ دعوتُ اللهَ أن يعافيك، فقالت: أصبر».

◈ ارتباط الصبر بالإيمان:

وهكذا نلاحظ أن الصبر مرتبط بالإيمان، وأن الإيمان غذاء الصبر وقوامه، لأن الإيمان الصحيح هو ما استقر في القلب، ونطق به اللسان، وظهرت آثاره على السلوك، والتزمت به الأعضاء.

فإن كان المصاب مؤمناً حقاً اعتقد أن المصيبة من عند الله، وأنه المتصرف بشؤون خلقه، وأنه يفعل ما يشاء، وأن ذلك مكتوب عنده، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وعندئذ يتحرك الإيمان، وأن المصيبة بقضاء من الله وقدر منه، وأنها حكم الله تعالى لابتلاء العبد، وامتحانه على الصبر، ومدى صلته بالله تعالى، وثقته بحكمه وعدله، وإنابته له، بالابتهال

والدعاء، وأنه لا رادَّ لحكمه، كما يعتقد المؤمن أن الآجال مقدرة ومحتومة، فلا تقديم ولا تأخير، وأن الله كتب آجال الناس عندما كانوا في بطون أمهاتهم، كما جاء في الحديث الصحيح «فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله وعمله، وشقي أو سعيد».

وكلما كان الإيمان قوياً وصحيحاً وثابتاً وطن المؤمن نفسه على الرضا والتسليم، وهوَّن على نفسه المصاب، فكان من سعداء الدنيا الصابرين، ومن الفائزين برضوان الله في الآخرة، وهو ما أراده الله تعالى بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، وفي الحديث الشريف: «الصبر نصف الإيمان» وقال علي كرم الله وجهه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له»، وقال أبو الدرداء: «ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر».

◈ الصبر أمر واقعي:

وفق ذلك فإن الصبر عند الابتلاء أمر واقعي، فالمصيبة متى وقعت فقد حلَّت ونزلت، وانتهت، ولا يمكن إعادتها، ولا التراجع عنها، ولا استدراك مقدماتها وأسبابها، ولا إزالة مآسيها، فصارت أمراً واقعياً، وخبراً ماضياً.

ومتى وقعت المصيبة بالمرء فهو بين أمرين: إما الصبر والاحتساب، لينال الأجر والثواب، وإما الجزع والهلع الذي يضر بصاحبه ثم يوصله إلى صبر الاضطرار رغماً عنه، وعليه الوزر والضيم، وهو ما بينه رسول الله ﷺ في آخر حديث الابتلاء، فقال: «فمن رضي فله الرضا، ومن سَخِط فله السَخَط» وزاد أحمد في روايته «ومن جَزِعَ فله الجزعُ» والجزع هو القول السيء،

والظن السيء، والمراد أن من رضي بالبلاء فله رضاء الله تعالى مع جزيل الثواب، ومن تبرم على ما وقع، وكره البلاء الذي نزل، وفزع مما حلَّ به، وجزع في أقواله، وأساء الظن بربه، فله السخط من الله، والعذاب الشديد، والألم النفسي، والعاقبة السيئة، فمن يعمل سوءاً يُجزَ به، والمقصود من الحديث الحث على الصبر على البلاء بعد وقوعه، دون أن يطلب نزوله، ومن اختار الجزع والسخط كان من الهالكين المفرطين، ومن صبر واحتسب، كان من الصابرين الراضين بالقضاء، الشاكرين على البلواء، الحامدين لله على الفضل العام، المحبين لحكم الله في كل آن.

وإن الجزع على المصيبة لا يردها، بل يضاعف في آثارها، ويزيد في آلامها، والمصيبة تجر المصيبة، وتفتح المجال لشماتة الأعداء، وإساءة الأصدقاء، وغضب الرحمن، وانبساط الشيطان، فيحبط الأجر، ويترل القلق والاضطراب، وكل مصيبة مهما كانت كبيرة فعند الله أكبر منها.

أما الصبر على المصاب فيرضي رب العالمين، ويخزي الشيطان الرجيم، ويسر الأصدقاء، ويسوء الأعداء، ويحل البِشر في العزاء، فيكون المصاب معزياً لنفسه قبل أن يعزيه أحبابُه، ويكون المصاب ثابت الحال، هادئ البال، وهذا ما أراده الشرع الحنيف من الاحتساب، وهو ما قصده من تحريم لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط على المقدور، وغير ذلك من عادات الجاهلية القديمة والحديثة.

والصبر على الابتلاء ضياء للمصاب، يبصر به الطريق المستقيم، ويكشف حوله الواقع الأليم، وينير له السبيل، ليتصرف بشكل منطقي، ويفكر بأسلوب عقلاني، ولذا ورد في الحديث «الصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقُها».

◈ الوسائل المعينة على الصبر:

ومع أن الصبر أمر واقعي منطقي، وأمر نفسي داخلي، فإن الإنسان يستعين عليه بوسائل متعددة، وأدوية مختلفة «ومن يتصبر يصبره الله»، ونذكر بعض هذه الأمور:

١. **الاستعانة بالقرآن،** وهذا أهم العوامل التي تعين على الصبر، ففيه تسلية عن هموم الدنيا، وعبرة لما يجري فيها، وعظة لما يقع، وذكر لما سيقع، وتذكير بالآخرة، وبشرى لمن صبر.

وفي قراءة القرآن يأنس القارئ بربه، ويطمئن قلبه بذكره ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقارئ القرآن يتكلم مع ربه، فتحضره الملائكة بالأنس، وتشاركه في الدعاء، ويطرد الشيطان.

٢. **التأسي بأهل البلاء،** لأن المصائب عامة، فلا يخلو منها بيت، ولا ينجو منها إنسان، وهي على درجات، فيستطيع المصاب أن يخفف عن نفسه بالتأسي بأهل المصائب، والاعتبار بما نزل بهم من الخطوب الكبيرة والمتعددة، فمن أصيب بفقد ولد عزيز، فلينظر إلى من فقد جميع الأولاد، ومن أصابه مرض في عضو من جسمه فلينظر إلى المبتلى بعدة أمراض، أو بجميع الأعضاء، ومن ناله نقص في ماله، أو خسارة في تجارته فلينظر فيمن ذهب ماله كله، وهكذا الفقير بعد غناه، والحزين بعد فرحه، والسجين بعد الحرية، والذليل بعد العز.

ذكر ابن الجوزي «أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها، وبلغ أرض بابل، مرض مرضاً شديداً، فلما أشفق أن يموت أراد أن يعزي أمه

سلفاً، فكتب إليها يا أماه، اصنعي طعاماً، واجمعي من قدرت عليه، ثم لا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة، واعلمي هل وجدت لشيء قراراً باقياً، وخيالاً دائماً، إني قد علمت يقيناً أن الذي أذهب إليه خير من مكاني، قال: فلما وصل كتابه صنعت طعاماً، وجمعت الناس، وقالت: لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة، فلم يأكلوا، فعلمت ما أراد، فقالت: من يبلغك عني أنك وعظتني فاتعظت، وعزيتني فتعزيت، فعليك السلام حياً وميتاً».

٣. **التعزية**: ومما يساعد المصاب على تحمل المصيبة والصبر عليها، ما يتلقاه من الأهل والأحبة والجيران والأصدقاء من المشاركة في المصاب، وتقديم التعزية له، وزيارته في بيته، وتسليته في أحواله، وتذكيره بغيره، ودعوته للصبر والاحتساب، وهو ما دعا إليه الشرع الحنيف، وبينه الرسول ﷺ في حق المسلم على المسلم، وترغيبه بتعزيته، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله سبحانه من حلل الجنة يوم القيامة»، وقال أيضاً: «من عزَّ مصاباً فله مثل أجره»، وقال: «من عزَّى ثكلى كُسِي بُرْداً في الجنة».

٤. **الدعاء**: وهو أحد الوسائل التي تعين على الصبر على البلاء، لأن الداعي يلجأ إلى الله تعالى، ويطلب منه الخير، ويستعين به على ما وقع، ويتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ، وعلمنا إياه في حديث طويل عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الكلمات لأصحابه... «وأسألك من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا» والدعاء مخُّ العبادة.

٥. **التأسي بفقد الرسول ﷺ**، لأن أعظم المصائب التي أحاطت بالمسلمين ما حل بهم عند فقد رسول الله ﷺ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، فقد كان بين

أصحابه نوراً ورحمة، يأنسون بوجوده، ويتمتعون بحديثه، ويستضيئون بنوره، ويستقون الخير والفضل منه، وكان بالمؤمنين رحيماً، وبالمسلمين رؤوفاً، عزيزاً عليه ما يشق عليهم، حريصاً إلى هدايتهم ورشدهم إلى أقوم الطرق، وأعلى الدرجات، وكان يطيب خاطرهم، ويصلح ما فسد بينهم، ويقيم العدل فيهم، ويتلقى وحي السماء إلى الأرض، وينير للأمة طريقها، وللبشرية هداها، وهذا ما قالته أم أيمن عندما بكت على رسول الله ﷺ فقالت: «والله ما أبكي على رسول الله ﷺ إلا أن أكون أعلم أنه قد ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا، ولكن أبكي على خبر السماء حين انقطع»، وقد وردت أحاديث كثيرة تعزي المصابين وترشدهم إلى أن يتذكروا مصيبتهم الحقيقية بفقد الرسول ﷺ، ليتأسوا بذلك، وتخف عليهم مصيبتهم، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس، أيما أحد من الناس، أو المؤمنين، أُصيب بمصيبة، فليتعز بمصيبته بي، عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي»، وقال أيضاً: «إذا أصاب أحدُكم مصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها من أعظم المصائب»، وذلك أن الوحي انقطع من السماء، وانتهت النبوة إلى يوم القيامة، وبدأت نوازع الشر تتحرك، وظهرت مخالب الشيطان بين ضعاف الإيمان، وخرج الفساد من مكمنه، وبدأت الردة والاختلاف، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

◈ علاج المصائب:

والوسائل المعينة على تحمل المصائب كثيرة، نكتفي بما ذكرنا للتمثيل، لا للحصر، ونختم الكلام بما ذكره ابن الجوزي -رحمه الله- عن علاج المصائب،

وحددها بسبعة أشياء، وهي: الأول: أن يعلم المصاب أن الدنيا دار ابتلاء، وأن الكرب لا يرجى منه راحة، والثاني: أن يعلم المصاب أن المصيبة ثابتة، الثالث: أن يقدِّر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة، الرابع: النظر في حال من ابتلي بأكثر من هذا البلاء، فيهون عليه هذا، السادس: رجاء الخلف إن كان من مضى يصح عنه الخلف كالولد والزوجة، السابع: طلب الأجر بالصبر في فضائله، وثواب الصابرين، وسرورهم في صبرهم، فإن ترقَّى إلى مقام الرضا فهو الغاية القصوى.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا النعم، وأن يجنبنا النقم، وأن يلطف بنا في القضاء والقدر، وأن يهون علينا مصائب الدنيا، وأن يلهمنا الصبر على البلاء، وأن يجعلنا من الصابرين، والحمد لله رب العالمين.

تاسعاً: التكريم الإلهي للإنسان

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل القرآن العظيم، وقال فيه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، والصلاة والسلام على رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، والقائل: «إنما بعثت معلماً» أخرجه ابن ماجه والدارمي من حديث طويل[1]، وبعد:

فقد كرم الله الإنسان وجعله سيداً في الأرض، ورعاه بالمد الإلهي، والوحي السماوي، والشرع القويم وأرسل له الأنبياء والمرسلين، وأنزل عليه الكتاب ليسير على الخط المستقيم، ويحقق الخلافة في الأرض، ويبين الله له الصراط المستقيم، ليأخذ بيده إلى خيري الدنيا والآخرة.

والإنسان أكثر المخلوقات حاجة للتربية، والإعداد، والرعاية، والعناية، والتوجيه، ولذلك أنزلت الكتب السماوية، وأرسل الأنبياء لإقامة معالم الطريق للإنسان في الإرشاد والتقويم، وظهرت في القديم المدارس والنظريات التربوية، وقامت في العصر الحاضر وزارات التربية والتعليم في جميع أنحاء العالم، تساهم في تربية الفرد وإصلاحه في الحياة، ليكون الإنسان الصالح، والمخلوق المهذب، والكائن الملتزم بالقيم والمبادئ والأخلاق والأحكام، دون أن يكون منقاداً للأهواء والعواطف ومجرد الغرائز والشهوات التي يؤدي تحريرها وانطلاقها إلى تدمير الإنسان ذاته، وإفساد بيئته ومجتمعه وجنسه.

ويعتبر المنطلق الأساسي لتربية الإنسان -من وجهة النظر الإسلامية- ما ثبت في النصوص الشرعية القطعية من التكريم الإلهي للإنسان، وهو موضوع

---

(١) سنن ابن ماجه ٨٣/١، سنن الدارمي ١٠٥/١.

البحث، ثم يحظى بعد ذلك بالتربية والتعليم، وبناء الفروع على الأصول، ووضع المناهج التربوية المؤصلة.

ويظهر التكريم الإلهي للإنسان في الفكر التربوي الإسلامي من خلال المنطلقات التالية:

١- **الإنسان خليفة في الأرض،** استخلفه الله قبل خَلْقه، وأعلن هذه المشيئة في الملأ الأعلى فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ونتج عن ذلك أن الإنسان هو السيد في الأرض، وأن الله أودع فيه بعض الصفات الإلهية، وهي صفات نبيلة في الإنسان، وسجايا فاضلة، كالرحمة، والعلم والإرادة، والقدرة، والكرم، والجود، والتدبير، والحكمة والسمع والبصر، وذلك بشكل نسبي، والإنسان هو الخليفة في الأرض لإقامة شرع الله ودينه، وتطبيق أحكامه والسير على منهجه، وإعمار الأرض، وكشف أسرارها، مع الاستمرار بالتوالد.

٢- **الإنسان محور الرسالات السماوية،** فالإنسان هو المقصود غايةً وهدفاً في ابتعاث الرسل، وإنزال الكتب، ومن أجل تربيته ومصلحته جاءت الرسالات السماوية، وعليه تدور شؤون الحياة، وهو قطب الرحى في الأنظمة التربوية في جميع البلاد والدول، لتحقيق مصالحه بجلب النفع له ودفع الضرر عنه، لتسمو مكانته الرفيعة، وعبوديته الكاملة لله، ويصبح أهلاً للخلافة في الأرض، ويسير على المنهج القويم.

٣- **تكليف الملائكة بالسجود لآدم:** تعظيماً له واحتراماً لمكانته، وتنويهاً بفضله، وحثاً للإنسان نفسه في الترقي نحو الفضيلة والكمال، قال علماء التفسير: «أمرهم بالسجود له على وجه التحية والتعظمة تكريماً له، واعترافاً بفضله، واعتذاراً عما قالوا فيه، وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام، وهو سجود تعظيم وتسلية وتحية، لا سجود عبادة»[1].

٤- **تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات،** لأن الله خلق في تركيب الإنسان كل عناصر الكائنات الأخرى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأوجه التكريم والتفضيل كثيرة، فالله جهز الإنسان بصفات متنوعة، ووضع فيه عناصر من كل الأجناس، وركبه من ثلاثة أركان أساسية، وهي: الجسم والعقل والروح، وخلق الانسجام بينها، وأقام التوازن العادل في الإنسان القويم، وخلقه على أحسن هيئة، وأكمل صورة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

٥- **تسخير ما في الكون للإنسان،** لإعداده السوي، فخلق له ما في السماوات والأرض، وسخر له ما في الكون ووهبه القدرات والملكات على إخضاعه، ليستطيع تحقيق مطامحه، والوصول إلى آماله وأهدافه، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٢/١٠١-١٠٢، في ظلال القرآن ١/٦٨.

[الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

٦- **تكريم الإنسان بالعقل** الذي يدرك به الأشياء، ويَخبر به الأمور، ويزين له الأعمال الصالحة، ويفرق بين الحسن والقبيح، ويرشده إلى الخير، ويبعده عن الشر، ويكون معه صاحباً ومرشداً ليختار الطريق القويم، ويعرف كنه الأشياء وحقيقة الأمور، ويطلع على تركيب الموجودات وخصائصها، ويكشف أسرار الكون ويحدد وظيفته، ويميز بين الطيب والخبيث، ويتحمل المسؤولية الملقاة عليه، فيناط به الإلزام والالتزام، والحقوق والواجبات، ويكون مسؤولاً عما يصدر منه، ويحاسب عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وإن عطل الإنسان عقله كان أضل من الأنعام، لأنه ملك وسائل المعرفة فحرَّفها عما خُلقت له، لذلك دعاه الشرع الحنيف إلى التفكير في الكون لسير دقائقه، وكشف أسراره، والاستفادة من خيراته، والتمتع بطيباته، ثم دعاه إلى العلم من أوسع الأبواب، وربط التكليف بالعقل، فقال عليه الصلاة والسلام: «رُفعَ القلمُ عن ثلاثةٍ: عن الصبي حتى يَحْتَلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يَسْتَيقظ» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وأحمد والحاكم والبيهقي، وصرف الإسلام العقل عن المغيبات، وأعطاه التفسير الصحيح الدقيق عن الكون والإنسان والحياة، وما وراء الحياة، تكريماً للعقل عن الخوض فيما لا يدركه فيقع في الضلال.

٧- **بناء الإنسان أولاً**، والاهتمام به، والاعتماد عليه في جميع مجالات الحياة، فهو الأساس، والعنصر الفعال في ذلك، وهو الغاية والمستفيد من جميع

الإنجازات والمخترعات، لذلك يهتم الإسلام ببناء الإنسان وإعداده قبل بناء المدرسة والجامعة والجامع، وقبل الخوض في القتال وإعادة البناء والإصلاح الاجتماعي، لذلك كان الإنسان محور الحضارات والأخلاق والأنظمة والتشريعات، وكانت دراسة الإنسان محط أنظار العلماء في الطب والفلسفة والتربية والأخلاق والتشريع وسائر العلوم، ليكونَ الإنسانَ الكامل، والمخلوق السوي، والخليفة الصالح بإذن الله، والحمد لله رب العالمين.

عاشراً: الإسلام رحمة للعالمين

الحمد لله الذي هدانا للإسلام والإيمان، وجعلنا من أهل الشريعة التي أكملها الله وفضلها وختم بها الأديان، والصلاة والسلام على رسول الله، الرحمة المهداة، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

◈ التطور والتقدم المعاصر:

فإن البشرية اليوم تعيش في صورة فريدة نتيجة للتقدم العلمي، وتطور المواصلات وسهولة السفر، وكثرة المعاملات، وضخامة التبادل التجاري والثقافي والخدمي والسكاني، فتجد في بلد ما خليطاً من الناس يزيد عن خمسين دولة، ونرى في جامعة ما طلبة من سبعين بلدا، وتشاهد في مهرجان ما، أو معرض ثقافي أو فكري أو تجاري ما يربو عن مائة جنسية، وتعرف يقيناً أن حجاج بيت الله الحرام من مختلف الشعوب والجنسيات والقوميات والأعراق، ومن قارات العالم الست، ويتكلمون مئات اللغات وآلاف اللهجات، ويتعارف الجميع في حدود تضيق أو تتسع، وبحسب الأهداف والعقائد والغايات والمصالح.

◈ التعارف بين الشعوب:

إن هذا التصور الواقعي اليوم هو ما دعا إليه القرآن الكريم قبل خمسة عشر قرناً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالخطاب لجميع البشر من ذرية آدم، وهم قبائل شتى، وشعوب متعددة، ويدعوهم للتعارف فيما بينهم، والتآلف في حياتهم، والتعامل والتعاون في معاملاتهم، والتناصر في تحقيق أهدافهم، قبل أن يظهر اصطلاح ((العالم قرية

صغيرة)) لأنهم إخوة في الإنسانية، وحياتهم واحدة، وكوكبهم واحد، وربهم واحد، وأصلهم واحد، ومصيرهم واحد، والخير يعمهم، والشر يستأصل شوكتهم، فلا مدعاة للقبلية الضيقة، والقومية المتقوقعة، والعنصرية الحاقدة، والمؤمرات الماكرة، على فريق من البشرية، والمخططات الخبيثة على فئات محددة، فإن آثار الدمار الشامل لا ينحصر في جهة أو قوم أو بلد، وإنما يمتد أثره لسائر الكرة الأرضية، وللأجيال المتعاقبة.

◈ حاجة الإنسانية للهداية:

إن الإنسانية أحوج من أي وقت مضى للرشاد والهداية، والتعاون والتآخي، وتوحيد الصف، والتبادل الثقافي والفكري والمعرفي، وخاصة إذا قامت على عقيدة صحيحة، وشريعة سماوية سامية، صالحة لكل زمان ومكان، وهذا ما أراده الله تعالى من بعثة محمد ﷺ، ومن رسالة الإسلام، وجاء بنصوص صريحة، وأدلة واضحة، ودلالة قاطعة، فقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ، ومبيناً وظيفة الرسالة التي كلف بها، والأمانة التي حمله إياها، فقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فكانت هذه الآية تبين خاصية رسالة محمد ﷺ، وميزتها على سائر الشرائع بمزية العموم والدوام، وأنها رحمة للعالمين، واشتملت هذه الآية- على وجازة لفظها- على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأنها كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه، وأفادت عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، بلفظ ((العالمين)) لجميع الأجناس والأقوام، وجاء التعبير القرآني أن محمداً ﷺ رحمة للعالمين، والمراد به رسالته التي تمثلت في أفضل صورها برسول الله ﷺ.

◈ العموم والشمول للإسلام:

ثم أكد القرآن هذ المعنى في عموم الرسالة لكافة الناس، والأقوام، والأجناس، والأعراق فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨].

فالله تعالى أرسل محمداً ﷺ رسولاً لجميع الخلق ليكون مبشراً للمؤمنين والصالحين والعاملين والمخلصين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين والمعتدين والظالمين والطغاة والبغاة من عذاب الجحيم.

ولفظ ((كافة)) من ألفاظ العموم، وهي حال من ((الناس))، أي للناس كافة، وقدم القرآن الكريم الحال على صاحبه للاهتمام بها، ولتأكيد عموم رسالة الإسلام لجميع الناس دون تفريق بينهم باللون أو الجنس، أواللغة، أو الأرض.

وجاءت السنة النبوية الشريفة تبين هذا الشمول في الشريعة والعموم للناس، وذلك في عدة أحاديث، منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، **وبعثت إلى الناس عامة**» ورواية مسلم «اعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، **وبعثت إلى كل أحمر وأسود..**»[1].

(١) صحيح البخاري ١٢٨/١ رقم ٣٢٨، صحيح مسلم ٣/٥ رقم ٥٢١.

قال النووي رحمه الله تعالى: «قيل المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان، وقيل المراد بالأسود السودان، وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم، وقيل، الأحمر: الإنس، والأسود الجن، **والجميع صحيح، فقد بعث إلى جميعهم**»[1].

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجداً، **وأرسلت إلى الخلق كافة**، وختم بي النبيون»[2].

فكان الإسلام ديناً عاماً، شاملاً، جامعاً، داعياً إلى وحدة العقيدة والفكر والثقافة مع المحافظة على الذات واللغة والجنس والقوم، مما يعتبر مجرد وعاء يحتاج إلى ما يشغله، فيرقى به، ويؤكد وحدة الإنسانية، وحاجاتها للتآلف والتعاون، والتناصر والتناصح.

◈ وحدة الإنسانية:

فالناس سواسية كأسنان المشط، والبشر وحدة قائمة متجانسة، فلا فضل لعربي على أجنبي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، وما يقدمه من عمل صالح ينفع الناس والبشرية، لأن «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»[3].

---

(١) صحيح النووي على صحيح مسلم ٥/٥ طبع المطبعة العصرية بالقاهرة- ١٣٤٩هـ /١٩٣٠.

(٢) صحيح مسلم ٥/٥ رقم ٥٢٣.

(٣) هذا الحديث رواه أبو يعلي في مسنده والبزار عن أنس ﷺ، ورواه الدار قطني عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً (الفتح الكبير ٢/١٠٥).

هذه الوحدة ليست مجرد شعار وأمنية وحلم، بل قررها القرآن الكريم على أسس واضحة واقعية تاريخية ومستقبلية، فقرر أن أصل البشرية واحد، ومنه بث الناس جميعاً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

ودعا الإسلام الناس جميعاً إلى عبادته ليكونوا عبيداً لله تعالى دون سواه من الطواغيت، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فالآية حددت الغاية والهدف من العبادة في المستقبل، وهي التقوى والصلاح، ثم دعا القرآن الكريم الناس جميعاً للدخول في السلم والسلام، وحذرهم من التفرق والتناحر لغواية الشيطان فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فالخطاب أوله للمؤمنين، ولكن لإقامة السلم مع كافة الناس، وهذا ما أكده القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فهو نبي مرسل من رب العالمين إلى العالمين، وليس لفئة أو جنس أو قوم، لأن الناس سواء بالنسبة للأحكام الشرعية.

◈ الرحمة المهداة:

ولم يكن الإسلام مجرد دين فحسب، ولم يكن محمد عليه الصلاة والسلام مجرد نبي مرسل للناس جميعاً فحسب، بل كان **الإسلام رحمة**

للعالمين، وكان محمد الرحمة المهداة من قبل رب العالمين، وهو ما بينه القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ولم يوصف نبي بصفتين من صفات الله إلا محمداً ﷺ «**رؤوف رحيم**».

وروى الدارمي أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أنا رحمة مهداة**».

وبناء على هذه الوحدة الإنسانية، والرحمة بالبشرية، سوى الإسلام بين الناس في المعاملة، وشرع لهم أحكاماً تعم الأجناس والأقوام، دون أن يختص البيض بأحكام، والسود بأحكام أخرى، ولا يخصص أحكاماً للشرق وأحكاماً للغرب، ولا يميز بين الأحكام للشمال والجنوب، الى غير ذلك من التفرقة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وتدل على ضيق الأفق، وإقليمية التشريع، وعنصرية الأنظمة والقوانين الوضعية، وهذا ما أدركه البشر اليوم في بعض المنظمات الدولية والعالمية، وحقوق الإنسان، ولو نظرياً.

وأكد رسول الله ﷺ هذه المعاني، فقال عليه الصلاة والسلام «كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[1].

وتعددت النصوص في القرآن والسنة التي تخاطب الناس كوحدة إنسانية بأحكام الإسلام، دون تفريق بينهم، فالجميع خلق الله، وهم عباد الله، وعبيد لله، وهم سواء، والكل مخاطبون بأحكام الشرع.

ومن هنا كان **الإسلام رحمة للعالمين**، وللبشرية أجمعين بعقيدته، وأخلاقه، وتشريعاته، وكان رسول الله ﷺ رحمة للناس، وكانت الشريعة

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٤١١.

الغراء منهج الله تعالى القويم في حسن التعامل، والتعارف، والتبادل، واللقاء، والعيش الرغيد، بما يحقق مصالح الناس، ويؤمن كل ما فيه خير لهم، ويدفع عنهم كل ما فيه شر، ويجنبهم مزالق شياطين الجن والأنس، ليكونوا عباد الله حقاً وحقيقة، وإخوة في الإنسانية واقعيا، ثم يبقى المسلم متميزاً بالتمسك بالعقيدة السمحة، والخوف الكامل من الله، والمراقبة في السر والعلن، وتقديم الخير والإحسان لجميع الناس، والرأفة والرحمة لجميع المخلوقات.

◈ الإسلام عقيدة وشريعة:

ومن رحمة الله تعالى بالعباد، ومن سموالإسلام وعظمته، أنه جمع بين العقيدة والشريعة، وأنزل في ذلك الكتاب العزيز، ثم بينته السنة الشريفة، لكن مع فارق كبير بينهما في الدنيا، وفي منهج التعامل مع الآخرين من سائر الشعوب والأجناس وأتباع الديانات، كما سيأتي.

أولاً: قدسية العقيدة:

قرر الإسلام قدسية العقيدة، وأنها لا تقبل المساومة، والمفاوضة، وأنصاف الحلول، وأنها لا يمكن فرضها على غير معتنقيها فقال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ورفع الإسلام من شأن الإيمان، وجعله علاقة سامية بين العبد وربه، وأن جزاءه في الآخرة.

وأمر الله عزل وجل رسوله ﷺ -في مجال المناظرة والمحاورة والجدل مع غير المسلمين- أن يقول لهم بكل صراحة ووضوح وحسم: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وكان سبب نزول هذه الآية، والسورة كلها، أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ الصلح في العقيدة للتنازل الجزئي عن الألوهية والعبودية، والاعتراف المتبادل بالايمان والعبادة، فجاء الرد المحكم ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١-٣]، ولذلك يترك أهل الكتاب على دينهم وعقيدتهم مهما كانت، دون أن تمس، حتى أمر القرآن الكريم المسلمين بعدم سب آلهة الغير حتى لا يتذرع بذلك فيسب الله معاملة بالمثل، جهلاً وحمقاً، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وفي المقابل لا يسمح للمسلم أن يمس العقيدة الإسلامية بسوء، أو يتلاعب بها علنا، وإلا كان مرتداً، فيستتاب، فإن أصر قتل كفراً، وإن أبطن ذلك سراً، وتشكك في أصول الإيمان وأركانه كان منافقاً، وهو أسوأ حالاً من الكافر، وأشد عقاباً، فهو في الدرك الأسفل من النار في الآخرة.

ثانياً: العدالة في الشريعة:

أما في الأحكام العملية فجاء التسامح في المعاملات، وإقامة العدالة في الأحكام، والتساوي في الحقوق والواجبات بين الجميع، مسلمين وغير مسلمين، وهو ما قرره رسول الله ﷺ نظرياً في الوثيقة التي كتبها عند قدوم المدينة بقوله «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا» وطبقه عملياً في جميع شؤون الحياة المادية في الأموال وأمام القضاء، وفي سائر الأحكام الشرعية، فيكون غير المسلم على قدم المساواة في الحقوق والواجبات في أحكام العقود، والمخالفات، والعقوبات التي تطبق على الجميع في الدنيا.

وأثبت التاريخ الإسلامي للدولة الإسلامية الالتزام بذلك مع غير المسلمين، وعاش أهل الكتاب في دار الإسلام بأمان وكرامة، بل كانت هذه العدالة والمساواة والمعاملة الحسنة، في إنصاف غير المسلم، وإعطائه حقوقه، ولو كانت على مسلم، سبباً في إقبال الناس على الإسلام، ودخولهم في الدين

الإسلامي، حتى صارت معظم البلدان التي فتحها المسلمون ذات أكثرية إسلامية، وكل ذلك يعود فضله لله تعالى الذي أنزل الإسلام رحمة للعالمين، فله الحمد والمنة، ونسأله حسن الفهم والاتباع والالتزام والتطبيق، والله من وراء القصد.

حادي عشر: آثار التدين على الطالب الجامعي

الحمد لله على **نعمة الإيمان والإسلام**، والصلاة والسلام على **رسول الله** المعلم الرحيم، والمربي القدوة، والناصح الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن التدين هو الالتزام بالدِّين، والوقوف عند حلاله وحرامه، وأداء واجباته، وتجنب محارمه، والتمسك بآدابه وأحكامه، والتصرف بما يمليه الشرع الحكيم عقيدة وشريعة وسلوكاً وفكراً.

والدِّين هنا هو الإسلام حصراً، لأنه الدين الإلهي السماوي الخالد، الذي أنزله الله تعالى لعباده، وتكفل بحفظه، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

ومقاصد الدين هي **تحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة**، بتأمين كل خير لهم، وجلب كل نفع يعود عليهم، ودفع كل ضرر أو فساد يتعلق بهم.

ولذلك تظهر **آثار التدين على الملتزم بأحكام الدّين**، وتتحقق النتائج الطيبة، والثمار النافعة على الفـــرد والمجتمع، والأسرة والأمة، بشرط أن يكون الالتزام كاملاً، وصارمـــاً، ودقيقاً، ويقترن به الإخلاص والمثابرة، والتطبيق العملي.

وهذا **ما تحقق فعلاً**، وبشكل نموذجي ومثالي في جيل الصحابة الذين لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً، ثم تأكد بشكل عام خلال التاريخ الإسلامي، فأنجبت الأمة العلماء والدعاة، والأبطال والقادة، والمبدعين والمفكرين، والخلفاء والساسة، وأثمرت حضارة رائدة، وتراثاً علمياً زاخراً، وثروة فقهية تشريعية فذة.

وهذه **الآثار متوقعة اليوم، وفي كل وقت، وعلى المستوى العام،** وأخص منها آثار التدين على الطالب الجامعي للتذكير والنصح والدعوة بشكل موجز ومختصر:

١- **التدين يحفظ للطالب حياته** التي يتمناها سعيدة هنيئة رغيدة، لقوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك» ثم يمنحه الطمأنينة والسكينة في حياته، والرضا بما تحت يده، والثقة بالله تعالى بأن يفتح عليه، ويوفقه في دراسته وامتحانه وسائر شؤونه.

٢- **التدين يصون الفكر والعقل،** ويرشد إلى الحق والصواب، ويعطي المناعة من تسرب الأفكار الخبيثة، والغزو الأجنبي، والتيارات الوافدة؛ لتكرار الدعاء «اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ» ولقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٣- **التدين سلاح يستعين** به الطالب على مواجهة شياطين الإنس والجن، والنجاة من رفاق السوء، ودفع المغريات المادية والجنسية، وهواجس النفس، ليكون في الموقع الذي دعاه إليه الله تعالى: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ**﴾ [الكهف: ٢٨].

ونكتفي في هذا المجال بقوله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» أي حماية ووقاية وحصن.

٤- **التدين غذاء** يستمد منه الطالب قوة الصبر على طلب العلم، والجَلَد على أعبائه، وأنه يشعر أن له أجراً وثواباً في سماع العلم ومذاكرته، والسهر

على طلبه، وتحمل مشاق الغربة والسفر لتحصيله، فإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يفعل، ومن مات أثناء طلب العلم فهو شهيد في سبيل الله.

٥- **التدّين ينظم للطالب وقته وحياته،** لأنه تدرب على التنظيم وتوزيع الأعمال حسب أوقات الصلاة المفروضة، من الفجر، فالظهر، فالعصر، فالمغرب، فالعشاء، وحسب النظام الدقيق لصيام رمضان، وغير ذلك من الأحكام الشرعية التي تقتضي حسن التنظيم والأداء، ليكون ذلك تدريباً عملياً، ومساعداً قوياً لتنظيم أعمال الدراسة، واقتناص الأوقات، وعدم تضييع شيء منها، وفوق ذلك، وأهم من كل ذلك، فإن **التدين يوفر على الطالب** الوقت الواسع الذي يصرفه بعض الطلاب على الملاهي، والمجون، والانحراف، والتسكع في الطرقات، وإشغال وقتهم بالمحرمات التي تستهلك العقيدة والدِّين، وتمحق البركة والتوفيق، وتبذر الأموال التي خصصت لدراستهم فينفقونها فيما يضرهم، ويعود عليهم وعلى أهلهم ومجتمعهم وأمتهم بالضرر والفساد.

٦- **إن التدين يؤمن رفع المستوى العلمي للطالب،** ذلك أن الطالب يتناول الأغذية المفيدة الحلال، ويتجنب الخبائث والمحرمات كالدخان والخمر والمخدرات وغيرها مما يضعف الجسم ويزيل العقل، ويشل التفكير، فالمتدين يحذر الاقتراب من ذلك، ويتغذى بالطيبات فيصح جسمه، ويسلم عقله وفكره، وتزداد قدرته على التحصيل والإبداع والتفوق، لأن العقل السليم في الجسم السليم.

٧- إن التدين يمنح الطالب الجامعي **الطمأنينة في الحياة، والرضا بكل ما يقع،** مع قيامه بكل الأسباب من الدراسة وغيرها ثم يستسلم إلى قضاء

الله وقدره، فلا يجزع لمصيبة أو شر أو ضرر، أو رسوب أو نقص درجات، ولا يبطر بفرح أو نشوة أو نجاح، ليبقى مطمئناً لاتمام المسيرة، ومتابعة الدراسة، ومجابهة الأزمات، والاستعداد لما هو آت.

٨- إن التدين يغمر الطالب **بالأمل الأكيد لمستقبله** الذي يحلم به، ويحاول أن يتعرف على مكنوناته، وينشغل به، وهو أمامه مجهول شبه مخيف، فيأتي التدين ليزيل عنه هذه الشوائب ليكون واثقاً بوعد الله فإن الله لن يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، وأن الجزاء الحتمي من جنس العمل، وأن الله يرعى عباده الأتقياء، ويصون لهم حياتهم بالسعادة زيادة عما يعطي كل إنسان حتى ولو كان كافراً من رغد الحياة، فكيف بالأحباب والمخلصين له.

وهكذا يوفر التدين للطالب الجامعي منافع جمة، ومصالح كبرى، وحياة رغيدة، ونفساً مطمئنة، ووقتاً مباركاً، وسبيلاً للنجاح والتفوق، واستعداداً لقادمات الأيام، وبذلك يكون أملاً متفتحاً لأهله، وذخراً لوطنه وأمته، وثروة في جامعته تفتخر به، وتعتز بوجوده، وتسعد لتخرجه.

نسأل الله تعالى أن يحفظ طلابنا وطالباتنا، ويرزقهم حسن التدين والالتزام بالشرع القويم، وأن يوفقهم لما يحبه الله ويرضاه، وأن يكتب لهم النجاح والتفوق، والحمد لله رب العالمين.

ثاني عشر: الاعتدال في التدين

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين والذي تمثل به، وبسيرته، وسنته، الدين الحق المبين، وجاء بالوسطية بعيداً عن التطرف والغلو، ومتجنباً للتشدد، ومحذراً من الإفراط والتفريط في الدين.

والاعتدال: هو منهج الإسلام في تشريع الأحكام، وفي الطريق السوي لسلوك المسلم، **والتدين:** هو الطريقة والمذهب الذي يسير المرء عليه نظرياً وعملياً، وهو المنهج الذي يتبعه في حياته، وفي صلته بربه عقيدة وعبادة، وفي خضوعه لله تعالى، وفي علاقته مع غيره، ليكون المجتمع على الصراط المستقيم، والمنهج القويم، وهو مايدعو إليه الإسلام في جميع جوانب الحياة، ويشمله عنوان «الاعتدال في التدين» عقيدة وشريعة وعبادة وسلوكاً، وفكراً وأخلاقاً.

وجاءت **النصوص الشرعية** في القرآن الكريم والسنة المشرفة تؤكد هذا المعنى العام في طلب الاعتدال في التدين، وهو مايرادف **التوسط** في الأمور، أو **الوسطية** في الحياة والسلوك، ويتبلور في «**الأمة الوسط**»، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وتأكد هذا المعنى في أصول الشرع والدين، وفي قواعده وضوابطه، وفي أحكام فرعية كثيرة، وجزئيات شرعية متعددة.

فأمر الله **بالتوحيد**، ونهى عن الغلو في ذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ

عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٧١].

فالله واحد أحد، فرد صمد، لم يلد و لم يولد، ويحرم الإشراك به، وادعاء البنوة والولادة له، وهذا مايؤدي إلى الكفر بسبب الغلو والمغالاة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴾ [المائدة: ٧٣]، فسماهم القرآن الكريم كفاراً، وقرر الوحدانية لله تعالى، فقال عز وجل: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

كما يتخذ **الغلو في الدين** أشكالاً أخرى تؤدي إلى الكفر، كتحريم ما أحل الله تعالى، وهو ما فعله الأحبار والرهبان، فأطاع الناس أوامرهم ونواهيهم، فاتخذوا منهم أرباباً من دون الله، وإن لم يعتقدوا أنهم آلهة العالم، وهو ما حكاه القرآن الكريم عنهم، فقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، ولما استغرب الصحابي عدي بن حاتم ﷺ ذلك، بينه له رسول الله ﷺ، فقال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» رواه الترمذي في كتاب التفسير، سورة التوبة، ولذلك ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وهذا **الغلو في العقائد** لم يقتصر على أهل الكتاب من الأمم السابقة، وإنما سرت عدواه إلى بعض المسلمين، وفشا هذا المرض الداخلي، والداء الخارجي، في نهاية الدولة الأموية، وأثناء الخلافة العباسية ومابعدها، و مما تشم رائحته أحياناً اليوم، وظهرت **الفرق المغالية في العقيدة**، وتسترت بعض هذه الفرق تحت شعارات إسلامية، وآيات قرآنية، ومذاهب صحيحة، فغالى بعضهم **في عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر**، وظهرت فرقتان متطرفتان على طرفي نقيض، وهما القدرية والجبرية، وغالى بعضهم في **حبِّ أهل البيت** وتقديم الإمام علي وتفضيله على جميع الصحابة، ثم تابعوا في تعظيمه حتى وصلوا إلى الكفر في تأليهه، كالسبئية وغيرهم من غلاة الشيعة، وغالى قوم في **الالتزام المطلق بالأعمال والسلوك**، وكفروا المسلمين عامة، وهم الخوارج، وغالى فريق من المسلمين **بالجانب العقلي** حتى قرروا وجوب الصلاح والأصلح على الله، وأوجدوا منزلة بين الجنة والنار، وهم المعتزلة، وغالت فئة **بصفات الله تعالى** تشبيهاً وتجسيداً، وهم المشبهة والمجسمة، وأفرط أناس **باللامبالاة والانعزالية**، وهم المرجئة، وغالت جماعات **بالتربية الروحية** والتهذيب النفسي، حتى وصلوا إلى الحلول والاتحاد بين الخالق والمخلوق، وهم غلاة المتصوفة.

وقد **انقرضت معظم هذه الفرق المغالية**، لأنها تفتقر إلى مقومات الحياة، ولا تتفق مع الفطرة والواقع، وتخالف النصوص الشرعية صراحة، وتحفر قبورها بأيديها، وتعجز عن الاستمرار في التطبيق، فانهارت أمام الحق وتقادم الزمن وتقلبات الأحوال، و لم يستطع دعاتها الثبات على غلوائهم، و لم

تتحمل نفوسهم المواظبة على التطرف والتشدد، وفشلوا في إقناع الناس بأفكارهم ومبادئهم لتأمين المدد لبقائهم، لأنهم إن نجحوا حيناً في اجتذاب بعض الأفراد، والتغرير بهم، بهذا الشذوذ والانحراف، فلن يستطيعوا أن يؤمنوا ذلك في كل الأوقات، ولئن ساعدهم الشيطان في أول الطريق، فسرعان مايتخلى عنهم بعد ذلك، وهو ماصوره القرآن الكريم عن موقف الشيطان وحيله وألاعيبه ثم خذلان مريديه في أحرج الظروف، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال عز وجل: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

وبين الله تعالى أن **العقيدة الإسلامية وسط وعدل** بين الأديان والشرائع، وجعل الأمة الإسلامية أمة وسطاً، لتكون أمة عادلة في سلوكها، وشاهدة على غيرها، وحاملة لآخر رسالات ربها، كما سبق، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فالأمة الوسط هي الأمة المعتدلة التي تلتزم الحق والتوسط، فلا تميل إلى طرف دون طرف، ولا تأخذ جانباً من الدين أو العقيدة، وتهمل جانباً آخر. وتمثل الاعتدال في التدين نظرياً في **الأحكام الشرعية**، وعملياً في **السلوك والتزام**، ويظهر ذلك جلياً **في التكليف**

بالأحكام، واليسر فيها، والتخفيف في الأعمال، وذلك بنصوص شرعية صحيحة، لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال عز وجل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ووصف رسول الله الإسلام فقال: «إن هذا الدين يسر» رواه البخاري، وثبت في السنة النبوية أن رسول الله ﷺ «ما خير بين أمرين (من الأحكام والتكاليف والأعمال) إلا اختار أيسرهما، مالم يكن إثماً» رواه البخاري ومسلم، وعندما انفعل بعض الصحابة في حادثة، وتشددوا فيها، بين لهم رسول الله ﷺ حقيقة الدين والتكليف، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين» رواه البخاري والترمذي، أي من شأنكم أن تبتعدوا عن التعسير لما جاء به شرعكم من اليسر، وكرر ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» رواه البخاري ومسلم، وقال أيضاً: «أما إني أتقاكم لله وأخشاكم، وإني أصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقال عن المتشددين في الصيام «أولئك العصاة، أولئك العصاة» رواه مسلم.

وجاء **التكليف الإلهي في الأحكام بحسب الطاقة البشرية** بالنص الصريح، فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ [الطلاق: ٧]، والآيات في ذلك متعددة، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وعلم الله تعالى المؤمنين الدعاء في ذلك، فقال عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ووصف القرآن الكريم رسالة محمد ﷺ بأنها لرفع الإصر والمشقة، فقال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال رسول الله ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقون» وفي رواية «خذوا من الأعمال ما تطيقون» وفي رواية «خذوا من العبادة ما تطيقون، فإن الله لا يسأم حتى تسأموا» والروايتان الأوليتان رواهما البخاري ومسلم، والثالثة رواها الطبراني.

ومن مظاهر الاعتدال في التكليف والأحكام **رفع الحرج والمشقة في التشريع**، فقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، فلا مشقة في الصلاة والصيام والزكاة والحج، ولا مشقة في الطهارة، وطلب الإنفاق بحسب الاستطاعة، وكذلك الجهاد والصدقات والنوافل، وقرر العلماء بأن **الحرج مرفوع على المكلف باتفاق**، وأن الشارع الحكيم لم يقصد في التكليف إلى المشاق والإعنات، وإن الإجماع على عدم وقوعه وجوداً في التكليف، وأن الشريعة موضوعة بقصد الرفق والتيسير.

وإن حصلت مشقة لظرف طارئ، أو واقعة عارضة، فإن الإسلام شرع الرخص، وفتح أبوابها في جميع الحكام، فشرع التيمم والمسح على الجبيرة والمسح على الخفين، وأذن بالصلاة قاعداً ونائماً للعاجز، وشرع قصر الصلاة وجمعها في السفر، وأباح الإفطار في رمضان للمسافر والمريض والحامل والمرضع، ورخص في بيع المعدوم للحاجة في السلم والاستصناع وغيرهما، ورغب رسول الله ﷺ بالأخذ بالرخصة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» رواه أحمد والبيهقي وابن

حبان وغيرهم، وكل ذلك للاعتدال في الأحكام والتخفيف عن العباد، والاقتصاد في التدين، والتوازن في المصالح، والرغبة في استمرار المكلف بالسير على منهج الله تعالى، والصراط المستقيم، لئلا يتطرق إليه انقطاع في السير، أو بغض للشرع والعبادة، أو كراهة للتكليف، وألا تشغله التكاليف والواجبات الدينية عن الأعمال الدنيوية، وعن الواجبات الخاصة في نفسه وأهله ومجتمعه، وغير ذلك من نتائج الإفراط والتفريط، لأن العمل القليل المستمر، خير من الإفراط والتشدد والتعنت الذي يردي صاحبه في منتصف الطريق، فلا يصل إلى غايته، وهو ما كشفه رسول الله ﷺ بقوله: «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» رواه البزار، وروى بعضه الإمام أحمد، وقال عليه الصلاة والسلام: «خذوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وكان أحب الدين إلى الله ما داوم عليه صاحبه» وفي رواية: «وإن أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قل» رواه البخاري ومسلم، قال النووي رحمه الله تعالى: «ومعنى لا يمل الله: لا ينقطع ثوابه عنكم، وجزاء أعمالكم، ويعاملكم معاملة المال حتى تملوا فتتركوا، فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم «وأرشد رسول الله ﷺ إلى **الاعتدال في الصلاة والقيام والصيام**، وحذر من صوم الوصال، والرهبانية بالانقطاع للعبادة، والامتناع عن الزواج، والإسراف في الانفاق، والاختيال في الثياب أو السرف فيها، وأمر بالاقتصاد في الطعام والشراب، قال تعالى: ﴿**وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: ٣١]، والإسراف هو مجاوزة الحد، سواء كان بالزيادة والاعتداء، أم كان بتحريم الحلال، لذلك حرم الإسراف في الطعام والشراب زيادة ومغالاة ومخيلة، وحرم الإسراف بمنع

الطيبات وتحريم الحلال، وعقب الله تعالى مباشرة في الآية السابقة بقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، **وحذر من تحريم الطيبات** وأنه اعتداء في الشرع، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧].

وطلب الشرع الحكيم **الاعتدال حتى في العادات والمباحات والتصرفات الخاصة** التي تظهر أمام المجتمع، لأن الإفراط في المباحات كالنوم والراحة يشغل عن الواجبات، أو يكون سبباً ووسيلة إلى الحرام نفسياً واجتماعياً ومسلكياً، قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال عز وجل: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ ﴾ [لقمان: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وشرع الإسلام الاعتدال في المهور وعدم المغالاة فيها، وبين رسول الله ﷺ أن أكثر النساء بركة أقلهن مهوراً، وقال: «خير النكاح أيسره» رواه أبو داود، وهذا ما أكده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «لا تغالوا في المهور»، وطلب الشرع الحكيم **الاعتدال في النفقة والإنفاق**، وفي الدفع والإعطاء، بدون إسراف ولا تبذير، وبدون بذخ ولا تقتير، وبدون إفراط ولا تفريط، وهو **ما يؤيده العقل السليم**، والمنطق السديد، ويتفق مع الواقع والحياة، ويسعى نحوه الحكماء وأولو الألباب، وينادي به المصلحون والوعاظ، ويرشد إليه الناصحون، ويحقق الانسجام بين متطلبات الحاضر والمستقبل، والفرد والمجتمع، ولذلك جاء ذكره في مواطن

كثيرة من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ووصف القرآن الكريم بذلك **عباده المتقين** الذين يسيرون على منهج رب العالمين، ويطبقون أحكامه، ويلتزمون شرعه، ويبتغون مرضاته، وسماهم **عباد الرحمن**، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال رسول الله ﷺ: «من فقه الرجل رفقه في معيشته» رواه الإمام أحمد، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما عال من اقتصد» رواه الإمام أحمد، وقال أيضاً: «ما أحسن القصد في الغنى، وما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في العبادة» رواه البزار.

وأمر القرآن الكريم **بالاعتدال والاقتصاد في الصدقات ودفع الزكاة، ونهى عن الإسراف** في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وإن **الاعتدال في الإنفاق هو قمة التوجيه الإسلامي**، لأنه يعالج أمراضاً نفسية في التعالي وحب الكبر، وفي الرغبة في الظهور والتفاخر، ثم الوقوع في شباك الشيطان عند الإنفاق غير المشروع، وعند التبذير في المال، قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]، ووصف القرآن الكريم المسرفين عامة بأنهم أصحاب النار، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤٣]، وقال عز وجل: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥١].

ويظهر مما سبق أن **الاعتدال في التدين عقيدة وشريعة، وفكراً وسلوكاً،** يحقق لصاحبه الحياة الرغيدة، والسعادة التامة في الدنيا والآخرة، ويجنبه من الأمراض الدفينة، والأخطار المحدقة، ويؤمن له الراحة والطمأنينة في نفسه، ومع أهله ومجتمعه، ليفوز برضوان الله يوم القيامة.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لالتزام شرعه ومنهجه ودينه، وأن يردنـــا إلى ديننا رداً جميلاً، والحمد لله رب العالمين.